مشروع الإمبراطورية الأمريكية

جيمس كارول

الحرب الصليبية

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

تواريخ حرب ظالمة

الجزء الثانى

مكتبة الشروق الدولية

الحـــرب الصليـــبيـــة

تـواريـخ حــــــــرب ظـالمـة

(الجزء الثانى)

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦هـ ـــ أبريل ٢٠٠٥ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

الجزء الثانى

چيمس كارول

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

هذه ترجمة لكتاب:

CRUSADE

Chronicles of an Unjust War

James Carroll

Metropolitan Books
Henry Holt And Company / New York

مقدمة

الولايات المتحدة منقسمة الآن قسمين شبه متساويين: نصف مع بوش والغزو الذى أصبح الآن احتلالاً، ونصف ضد ذلك. . .

كان يمكن للحكومات العربية زيادة ثقل الكفة المضادة للغزو والاحتلال، والتى أصبحت ترى أيضًا الظلم الواقع على الفلسطينيين. . . ولكنها للأسف - تلك الحكومات - أضافت للكفة الأخرى، وإن انتقدت من حين لآخر ببعض البيانات - المائعة والمتناقضة للاستهلاك المحلى - ما يحدث فى العراق وفلسطين، وكأن فى ذلك ذرًا للرماد فى العيون.

ونقدم هنا للقارئ الجزء الثانى والأخير من كتاب «الحرب الصليبية» للناشر الأمريكى: Metropolitan Books - Henry Holt & Company/ New York.

وهو أحد كتب سلسلة الناشر عن مشروع الإمبراطورية الأمريكية.

يستنكر الكاتب - من ضمن ما يستنكر - تصريح چنرال الحرب الأمريكى على الإرهاب: «عرفت أن ربى أكبر من ربه، وعرفت أن ربى كان حقيقيًا وأن إلهه كان صنمًا».

تسرب للعلن تصريح الچنرال الأمريكى، وهاجمه المسلمون فى أمريكا. . ولكن لم يعتذر الچنرال، ولا البنتاجون، ولا وزير الخارجية، وبالطبع ولا الرئيس الأمريكى. . .

لزمت الحكومات العربية حكمة القرود: لا أرى لا أسمع لا أتكلم. . . فلم نسمع لرئيس عربى، ولا حتى وزير خارجية أو وزير إعلام، أو إعلام رسمى، استنكارًا

أو حتى اعتراضًا على ذلك . . فكل جهدهم وعقلهم وقلبهم مدخر لخدمة الرئيس . . فما دخل تصريح الجنرال في ذلك؟

وانظر كيف تنقلب الحكومات العربية وإعلامها حربًا على من يهاجم الرئيس . .

نشاهد الآن محاولات تقسيم وتفتيت جديدة للعالم العربي(*)، مثل ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، عندما ظهرت الأردن للوجود كمكافأة لبعض الحجازيين على مساعدتهم الإنجليز ضد الأتراك، ثم انقسم الشام إلى سوريا ولبنان وفلسطين، ثم ابتلعت إسرائيل فلسطين . . ونشاهد ونسمع وزراء الخارجية والمسئولين الأمريكيين والإنجليز والإسرائيليين، وغيرهم . . يتكلمون عن حقائق الواقع الجديد . . أي الأمر الواقع . . أي شريعة القوة . . أي عالم الغابة . .

وفي نفس الوقت . . نشاهدهم ونسمعهم يتكلمون عن القيم والأخلاق والحرية . .

وينتقلون بكل سرعة وخفة ويسر بين عالم الغابة وعالم القيم ذهابًا وإيابًا . . في نفس القضية أو المسألة . . بل وأحيانًا في نفس الجملة . . وكأنهم يضعون القواعد ويغيرونها حسبما يرون . . ولا يجرؤ حكامنا حتى على التساؤل وليس الاعتراض(**) . .

(*) في الوقت الذي يتوسع فيه حلف الأطلنطي والاتحاد الأوروبي.

(**) يتكلم الرئيس بوش عن المثاليات والقيم والأخلاق والخير، وأحيانًا يتكلم عن الإجماع الدولي، والمجتمع الدولي، والأمم المتحدة، ويدين من ينتهك، أيًا مما سبق، ثم نراه - ومن سبقه من الرؤساء الأمريكيين - يعلنون ويؤكدون مرارًا وتكرارًا أنهم لن ينتظروا الأمم المتحدة ولا المجتمع الدولي فيما يخص مصالحهم، وأن الولايات المتحدة ستتصرف بمفردها، وكان چورچ بوش الأب يقول:

«ما نقوله يسري - What we say, goes»

يقول بوش الابن عن المقاومة الفلسطينية إنها إرهابية وخارجة عن القانون، وتصدر الأمم المتحدة قرارًا يوجب على سوريا الانسحاب فورًا من لبنان. وفي المقابل لا نراه يتكلم عن انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية والجولان السورية ومزارع شبعا اللبنانية، بل ينتهك - رئيس القيم والمثاليات والحرية وحقوق الإنسان والخير - وما إلى ذلك من لغو وكذب وخداع ونفاق - ليقول متخطيًا بكل رشاقة وخفة لغة الخير إلى لغة وشريعة الغاب - ليس من الواقعي أن تعود إسرائيل إلى حدود ١٩٤٩م [يقصد حدود ١٩٤٨م] - ضاربًا بعرض الحائط قرارات الأمم المتحدة، وركنها الركين في أنه لا يجوز الاستيلاء على الأراضي بالقوة، ولا يجوز مكافأة المعتدي، وأول حقوق الإنسان حقه في العودة إلى بلده - كذلك يقول الرئيس بوش إنه يجب على الفلسطينيين أنه يخوضوا حربًا حقيقية على الإرهاب، فيظهر الرئيس بوش على حقيقته، وهو يحرض الفلسطينيين ضد بعضهم البعض، استمرارًا لسياسته التي أعلنها على الملأ:

«سوف نقلب بعضهم على بعض - We will turn them one against another».

تجيء من أمريكا لجنة حماية الحريات الدينية . . وتستقبلها الحكومة المصرية بكل الحفاوة . . ولا مانع من ذلك . . ولكن لا يصدر عنها ـ ولو ذكراً فى معرض الحديث ـ شيئًا عما يحدث للمسلمين ومساجدهم فى إسرائيل أو أمريكا ، . . ولا حتى من باب العتاب : كيف يمكن لچنرال الحرب على الإرهاب أن يقول ما قال؟ أو كيف يمكن للدعاة النجوم فى أمريكا ، مثل جراهام الابن وپات روبرتسون ، وغيرهما ـ ممن يشاهده عشرات الملايين فى أمريكا ـ أن يقولوا لمستمعيهم : «إن الإسلام دين إرهاب وأن محمداً ﷺ قاتل وقاطع طريق وزير نساء؟» .

عفواً عزيزى القارئ . . فقد نسيت أن حكوماتنا تدخر كل جهدها لخدمة رؤسائها . . وليس فى أولويات أچنداتها المواطنون ولا الإسلام ولا رسوله .

ولكن چيمس كارول الكاتب الأمريكى المسيحى ، المخلص لوطنه ولدينه ، استنكر ذلك ، وما وراء ذلك .

عادل المعلم

أبريل ٢٠٠٥م

* * *

الجزء الثالث

الحرب

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

١١- أسئلة
١٢- اعترافات
١٣- حرب خاسرة
١٤- الحرب تنتشر
١٥- كل احتلال ينتهي نهاية سيئة
١٦- آلام الحرب

(١١)

أسئلة

هددت الفوضى فى الشرق الأوسط بأن تصبح فوضى عالمية بل وأكثر إهلاكًا فى النصف الأول من سنة ٢٠٠٣م. إذ إن مبادرات أمريكا فى الخارج بدأت تعطى نتائجها العكسية، كما أن الأسئلة المرتبطة بالسياسة الخارجية لإدارة بوش وحماقاتها وجدت طريقها للانقلاب على الأمة.

وأحد أشد الأمثلة فظاعة يتعلق بكوريا الشمالية التى كان الرئيس بوش قد وصمها بوصفها جزءاً من محور الشر فى خطابه سنة ٢٠٠٢م عن حالة الاتحاد. وفى وقت لاحق من تلك السنة، صوت الناخبون فى كوريا الجنوبية بشكل غير متوقع ضد الولايات المتحدة عندما انتخبوا «روه مو هايون» رئيسًا لبلادهم، وهو من نشطاء حقوق الإنسان ومن معارضى واشنطن. وقد تكلم الرئيس بوش صراحة عن «إسقاط» رئيس كوريا الشمالية «كيم يونج إيل». ثم وفى نفس الوقت الذى تم فيه إطلاق «عملية الحرية العراقية» فى ١٩ مارس ٢٠٠٣م، اشتركت الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية فى تدريبات عسكرية مقررة منذ زمن طويل تحت اسم «فرخ النسر»، ولم يكن مقصوداً به سوى تصعيد التوتر فى شبه الجزيرة الكورية.

وفى غضون أيام بعد هذا، أمرت كوريا الشمالية، المفلسة والتى يوشك شعبها على الموت جوعًا، بزيادة فى الإنفاق العسكرى الباهظ بالفعل. وفى هذه الفترة نفسها وزع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد مذكرة سرية ـ سرعان ما تم تسريبها ـ من البنتاجون تحبذ تغيير النظام فى بيونج يانج. وهنا مربط الفرس: «فالحرب الوقائية» ضد العراق بدت حينئذ وكأنها مقدمة لمبادرة مثل هذه ضد كوريا الشمالية. ولكن الأفعال تتسبب فى ردود أفعال: ففى أبريل أعلنت كوريا الشمالية أنها بدأت تعيد عملية تحويل الوقود إلى بلوتونيوم. هذه الحركة قبل الأخيرة صوب السلاح النووى كان واضحًا أنها تعبير عن استجابة كوريا الشمالية على بوش وحربه ضد العراق. لقد كان ذلك رمزًا دالاً على

فشل الإدارة الفظيع فى فهم الأثر المتوالد المحتوم لاستراتيچية الأمن القومى الشاملة لديها، والتى تدرجت من تغيير النظام إلى الصخب المهدد باللجوء إلى ترسانة أمريكا النووية.

أما كوريا الجنوبية، التى يفترض أنها المستفيد من الالتزام الأمريكى طويل المدى، ومن سبعة وثلاثين ألفًا من جنود الولايات المتحدة المقاتلين المنتشرين فوق أراضيها، فقد طرحت أسئلة مدوية حول أسلوب واشنطن برمته. فقد تركزت سياسة «شعاع الشمس» الجديدة التى اتبعتها «سيول» على السعى لإقامة روابط أقوى مع بيونج يانج، لا المواجهة - وليس خراب شبه الجزيرة الكورية بأسرها. ولم يكن هناك مكان اتضح فيه رفض مذهب بوش بهذا الوضوح. فقد خرج آلاف من الكوريين الجنوبيين إلى الشوارع ضد الولايات المتحدة التى تتولى حمايتهم. هذا رفض واضح للأسلوب الأمريكى من شعب يفترض أنه أكبر مستفيد منه. لن يكون هناك تغيير للنظام فى بيونج يانج. ويمكن للأسئلة أن تكون قوية.

* * *

مفاجأة يوم كذبة أبريل

١ أبريل ٢٠٠٣م

فى يوم كذبة أبريل منذ خمسة وثلاثين عامًا مضت، رُوِّج للقصة غير المحتملة تمامًا بأن ليندون ب. چونسون قد أعلن عن عزمه ألاَّ يسعى لإعادة انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة. ولم تكن نكتة. فعلى شاشة التليفزيون فى الليلة السابقة كان الرئيس الميال للحرب قد أعلن عن إصراره على إنهاء الحرب فى ڤيتنام. وقال إنه أمر بإيقاف ڤيتنام الشمالية بعد خط العرض العشرين، وأنه مستعد للتفاوض. وأكد چونسون رغبته فى السلام بتخليه عن طموحه السياسى الشخصى. وبدا وكأن هناك نهاية محتملة للحرب أخيراً.

وكتب الصحفى تشارلز كايزر: «على مدى أربعة أيام فى أبريل، حل الفرح محل الغضب فى أمريكا، وحل الأمل محل اليأس». إذ إن الأخبار القادمة من الحرب على مدى الشهور السابقة كانت مروعة: الحصار الوحشى فى خى سانه، هجوم التيت،

طلب الچنرال وليم ويستمورلاند مزيداً من القوات إضافة إلى ٥٥٠ ألف جندى التى كانت لديه بالفعل («إننى فى حاجة ملحة إلى التعزيزات»)؛ حشد غاضب من معارضى الحرب يقتحمون البنتاجون، الخيانة التى شعر بها مؤيدو الحرب مجسدة فى استقالة وزير الدفاع روبرت مكنمارا. لقد كانت الأمة منقسمة بشكل مرعب. لقد جاءت الحرب لكى تشير إلى كل ما هو خطأ. وهذا هو السبب فى أن كل قلب أمريكى كان يمكن أن يخفق فى ذلك الصباح بسبب أخبار الصفحة الأولى.

وأيا كانت مقاصده فى البداية، فإن سياسة الحرب التى اتبعها الرئيس قد أظهرت نفسها على أنها خلطة من عدم الكفاءة، والخداع، والولع بالعنف والغطرسة تجاه المعارضين فى الخارج والاحتقار للمعارضين فى الداخل. بيد أن سياسة الحرب هذه كانت أيضًا وهمًا فاسداً ومهلهلاً تمت إدانته الآن. وأخيراً، لم تكن أمريكا لتدمر ڤيتنام لكى تنقذها. وكان انسحاب چونسون يعنى أن اللطافة الأمريكية استطاعت أن تنتصر بعد كل شىء. بل إننى نفسى تحركت لكى أكتب خطابًا إلى الرئيس چونسون الذى كنت قد لعنته، وشكرته على شهامته.

بعد ذلك بأربعة أيام، ومع مصرع مارتن لوثر كنج چونيور، سقطت السماء على أمريكا. ففى هذه الحادثة الواحدة، وبطريقة لم نستطع أن نستوعبها فى ذلك الوقت، تحطم أملنا الوليد، ومعه تكسر إحساسنا بالشفاء الممكن. فقد ذهب الاغتيال أبعد كثيراً من موت رجل واحد، وتعدت مضامينه الصراع الخاص الذى ارتبط به. وعلى نحو ما أظهرت أعمال الشغب التى اندلعت بعد اغتيال كنج، أن التقسيم العنصرى فى أمريكا أعمق حتى مما كان يظن. فقبل أربعة أيام فقط، كانت لجنة كيرنر قد كشفت عما توصلت إليه من أن الأمة قد صارت أمتين، فصلتهما العنصرية ـ وقد برهن موت كنج على هذا. لقد كان «المجتمع العظيم» حلما زائفًا، إذ إن أحداث الأسابيع التالية (حملة الفقراء، أحداث شغب الطلبة، اغتيال روبرت كنيدى، الفوضى فى مؤتمر الديمقراطيين فى شيكاجو، انتخاب ريتشارد نيكسون رئيسًا على أرضية «السلام السرى») قد عرَّت تمامًا حقيقة أن أمريكا كانت فى حرب ضد نفسها. وبطبيعة الحال، استعادت ڤيتنام مكانها فى قلب المأساة. وبدأت المفاوضات فى پاريس ولكنها لم تصل إلى شىء على مدى سنوات. ولم تكن الحرب قد وصلت إلى منتصف طريق النهاية. السلام فى أول أبريل ـ كان ينبغى علينا أن نعرف بشكل أفضل.

تلك الأحداث الحزينة هي ذكريات شائعة، وهى أساسية بالنسبة لما تغصُّ به قلوبنا عند ذكر «الستينيات». والواقع، أنها تشكل انهياراً للأمل الديمقراطى، ذلك الانهيار الذى لم تكن الولايات المتحدة قد شفيت منه فى الحقيقة. وهكذا تطفو الحرب ضد العراق على تيارات تحتية من الإحباط كانت مألوفة لفترة طويلة، ولكن هل هناك تيار مضاد من الأمل ما يزال يطفو كذلك؟ منذ خمسة وثلاثين عاما مضت، استيقظ الأمريكيون على اعتراف أخلاقى كان قويا بقدر ما كان عابراً. ويتطلب أن نلاحظه. فقد اعترف الرئيس بشكل مؤثر بما كانت الأمة كلها، من خلال مجادلات اليمين واليسار، قد عرفته بحدسها، أن التدخل فى ڤيتنام كان غلطة، سواء تم تعريفها بمصطلحات أخلاقية أم فنية. لم يكن ممكنا أن يأتى «النصر». ومن ثم فإن المزيد من التصعيد لم تكن له ضرورة. وكون أن الزعماء التالين فشلوا فى الوفاء بوعد هذا الاعتراف (نيكسون وكيسنجر، وخرافة «السلام المشرف») لا ينبغى عزله عن مغزاه.

وعندما قال چونسون: «وبناء عليه فإننى لن أسعى...» كان يستجيب لإرادة الشعب التى تجلت واضحة فى أماكن الاقتراع، وفى مظاهرات الشوارع، وفى الإذاعات الجديدة، وفى ملايين المناقشات التى دارت فى غرف المعيشة. كان قرار چونسون انتصاراً للديمقراطية فى حقيقته. وكان لا بد للحرب أن تنتهى. وعرف الشعب هذا. وقد عرف الرئيس هذا أيضًا. وجاءت التحركات السياسية بوصفها حسابًا أخلاقيًا. ولا غرو، فإن الأمة كانت مبتهجة على مدى عدة أيام من شهر أبريل آنذاك.

إنه شهر أبريل مرة أخرى. وآلة الحرب قد أطلق لها العنان، ومن الواضح أنه لا يمكن إيقافها. حرب جوية متصاعدة، اندفاع فى إرسال التعزيزات، عدو مدهش، مظاهرات فى الشوارع، أمة منقسمة. ولكن كما كان الحال من قبل، تمت صياغة سياسة الحرب التى تتبعها واشنطن فى أرض الفانتازيا ـ وهى حتى الآن تعرض كما هى. هذه الذكرى السنوية تشى بأن آلة الحرب التى تسير فى مسارها يمكن إيقافها. والرئيس الفخور المتباهى يمكن إسقاطه. إنها كذبة أبريل حينما يصير السلام نكتة يمكن استرجاعها. أوقفوا الحرب!

***

الإجابة لا

٨ أبريل ٢٠٠٣م

ألم تهزك خسارة الشبان الأمريكيين الذين ماتوا فى العراق، أم أنك لا تبالى باللوعة التى تشعر بها عائلاتهم الآن، أم أنك أقل قلقًا بشأن ما ينتظر الأفراد الأقوياء الذين يوشكون على دخول بغداد؟

هل أنت مندهش من أن كثيراً من مقاتلى صدام حسين قد حاربوا بقسوة وبلا قانون؟ هل اكتشاف الجثث الجماعية فى البصرة يقدم جديدا؟ هل أنت واثق من أن الأسلحة الكيمياوية أو البيولوچية لن تستخدم، أم أنك متأكد من أن هذه الأسلحة لم توزع على آخرين ممن يكرهون أمريكا؟

هل يعنى موت العراقيين غير المقاتلين بالنسبة لك شيئًا أقل من مصير قواتك؟ هل الأطفال العراقيون أقل قيمة من غيرهم من الأطفال؟ هل الشباب المجندون الذين يشكلون كتلة الجيش العراقى يستحقون السحق والقتل؟ هل الحزن الذى أصاب عائلاتهم أقل من الحزن الذى ألم بالعائلات الأمريكية؟ وهل قادة حزب البعث يحفلون بالناس الذين يختبئون خلفهم؟ ألا يعرف مخططو الحرب أن كثرة من الناس سوف يواجهون الموت، والبتر، وانعدام المأوى قبل أن يتم حصر زمرة القادة فى ركن؟ هل يساعد أى عائلة عراقية مكلومة أن يخبروها بأن الكرب الذى تعانيه أمر «لا بد منه»؟

هل ستسير الحرب هذا الطريق إذا ما قام مجموعات كبار السن بتبادل أماكنها ـ مع صانعى القرار من الأعمار المتوسطة على كلا الجانبين ـ بينما يبقى الشباب من سن العشرين آمنين خلف الخطوط؟ هل ستكون الحرب محبوبة إذا ما انطوت على أى خطر حقيقى على أرض الوطن فى أمريكا من معاناة العواقب المباشرة للحرب : أحياء سكانية مدمرة، أطفال يتامى، آلاف بلا سكن، أمراض من المياه الرديئة، مستشفيات مكتظة؟ هل كانت الحرب ستبدأ لو كانت مثل هذا العواقب تهدد بوسطون مثلاً، أو نيويورك؟ هل يمكن لشعب لم يخضع للغزو قط، أو قصف شامل أن يبدأ فى تخيل ما يمكن أن تفعله مثل هذه الأشياء فعلاً بالأجساد والأرواح؟

هل تقف واشنطن على استعداد لإضفاء الصفة العالمية على سياساتها فى الحرب

الوقائية والانتهاك الكلى للسيادة بوصفها مبادئ جديدة للنظام العالمى المتاح لكل الأمم؟ هل كانت واشنطن سترحب بمثل هذا السلوك من موسكو، مثلاً، أو من بكين؟ هل التعريف قصير المدى للنصر فى العراق سينجو من عواقبه العالمية طويلة المدى، عندما يصير العدوان «الإنسانى» سلوكًا شائعًا بين الأمم؟ وبالنسبة للعواقب المحلية على العراق، هل ستكون أمريكا قوة احتلال أفضل مما تفعله إسرائيل فى غزة والضفة الغربية؟ وهل النصر حقًا نقيض الهزيمة؟

وفى عصر الأسلحة المدمرة للعالم، هل يؤدى العنف إلى التوازن العالمى والأمن الداخلى؟ هل تم إيقاف قوانين الانتقام والثأر القديمة؟ هل ستضع الحرب فى النهاية حدًا للحرب؟ هل يؤدى استخدام القوة المهيمنة من جانب دولة قوية ضد دولة ضعيفة إلى إبطاء انتشار الأسلحة النووية إذا ما قدمت لدول ضعيفة أخرى المبرر لحيازة هذه الأسلحة؟ هل السياق الأكبر الذى يتضمنه السؤال السابق يبدو أنه قد ورد على مخططى الحرب فى الولايات المتحدة؟

لو أن مقاصد الولايات المتحدة كانت بريئة، وتهدف فقط إلى القضاء على الفوضى، فهل يؤدى هذا الجعل الفوضى الجديدة التى تعقب كل عملية قضاء على الفوضى أقل قسوة؟ ومن ناحية أخرى، إذا كانت أغراض أمريكا أنانية، ترمى إلى الهيمنة الاقتصادية والسلطة العالمية، فهل يمكن لحرب تم شنها على هذا النحو أن تحمى ما يجعل أمريكا أمريكا؟ هل تهم دوافع أمريكا، سواء كانت طيبة أم سيئة، أولئك الذين ماتوا بأى شكل؟

هل يمكن شن الحرب العدوانية على أيدى أولئك الذين يدركون المأساة التى لا نهاية لها فى الأحوال الإنسانية؟ وكيف أن كل قصة ـ سواء كانت قصة شخص أو أمة ـ تنتهى بالموت؟ وكيف أن كل موتة فى غير موعدها تجرح المطلق؟ وكيف أن الموتة غير الضرورية بحد ذاتها هى العدو الأخلاقى؟ وإذا ما عرفنا ذلك، فهل تكون أمريكا على هذا القدر من الاستعداد للدخول فى تحالف مع الموت الذى هو الحرب؟ هل كانت أمريكا ستستطيع أن تقتل كل أولئك الأطفال؟ هل كانت أمريكا ستقدر على إرسال شبانها وشاباتها إلى الموت؟ وهل كانت أمريكا ستستطيع، فى هذه المسألة، أن ترسل

بهذه القسوة جيشًا يتكون أساسًا من المجندين الذين ليس لديهم خيار آخر؟ هل كانت أمريكا، على نحو أوسع، ستقدر على الترخيص بحروب مستقبلية مثل هذه، وتبذر بذور الموت فى غير أوانه فى الريح التى تهب الآن عبر إيران وتركيا وإسرائيل وفلسطين، والسعودية ومصر ـ وعبر العالم نفسه إلى كوريا ـ وباكستان والهند؟ وهل الاستحواذ الجاهز لإطلاق فكرة محور الشر، يجعل أمريكا فى صفوف محور الخير الإنسانى؟

هل ما عادت أمتك تعرف أنها، أيضا، جزء من الأسرة الإنسانية، وأن هذه الأسرة تحذر الآن من خسارة فادحة فى الثقة فى المثال الذى رفرف العلم الأمريكى من أجله كل هذه المدة؟ وهل هذا العلم وكل الذين حملوه قد تشرفوا بما يتم عمله تحت رايته اليوم؟

هذه الأسئلة الكثيرة تغلى بحيث تتمركز فى ثلاثة أسئلة: هل كانت هذه الحرب ضرورية منذ البداية؟ هل هى حرب عادلة الآن؟ إذا كانت الإجابة التى تأخذ بالأنفاس ستؤدى على نحو ما إلى أن تغير أمريكا مسارها، بعيدًا عن الحرب وباتجاه القانون والحياة مرة أخرى، فهل سيكون الموتى قد ماتوا عبثًا؟

* * *

أمة ضائعة

٢٢ أبريل ٢٠٠٣م

حتى قبل استخلاص النتائج حول الحرب فى العراق (صدام حسين؟ أسلحة الدمار الشامل؟ الاستقرار العراقى؟ الثمن الذى يدفعه المدنيون؟ سوريا؟) يتكون اتفاق فى الجبهة الداخلية على مراجعة جذرية لما تعنيه أمريكا فى العالم. إن المذهب الجديد الذى يتمركز حول النزعة الفردية القسرية، يفترض أن الولايات المتحدة لا تقف بمعزل عن البلاد الأخرى فحسب وإنما تقف فوقها. إن النزعة القبلية البدائية لدى الفتيان فى مباريات كرة القدم ـ «نحن رقم واحد» ـ قد تم تحويلها إلى بديهية من بديهيات النظرية الاستراتيجية للولايات المتحدة. لقد حلت القوة العسكرية محل المثالية الديمقراطية بوصفها المصدر الأساسى للنفوذ الوطنى. والخدمة المسلحة الأمريكية، التى كان ينظر إليها من قبل بوصفها دفاعية أساسًا، قد صارت الآن هجومية بشكل صريح. فالعدوان

هو الوقاية. وتم تخفيض دور الدبلوماسية إلى مستوى التمهيد للحرب الوشيكة ثم تجميل وجه الحرب بأحسن ما يمكن ـ وهدف هذا كله ليس السيادة على العالم وإنما النظام العالمى. وكون النظام العالمى فى العصر الجديد يتطلب فى الحقيقة السيادة الأمريكية إنما هو نتيجة غير مقصودة لإيثار أمريكا استخدام القوة. فكرة «نحن رقم واحد» تجعل العالم آمنًا للجميع ـ شريطة أن يقبل الجميع ذلك.

هذه الرؤية الجديدة واضحة، والمدافعون عنها أقوياء، ومع العراق نجد كتلها الأساسية متراصة فى مكانها، بما تنطوى عليه من مضامين واضحة بالنسبة لبلاد متباعدة جغرافيا مثل كوريا الشمالية وإيران. ما العناصر التى تقوم عليها رؤية بديلة؟ فى عالم يرتعد من تهديد الإرهاب وانتشار الأسلحة، والإثارة المروعة من محطتى تليفزيون Fox وCnn، يتم تضخيم التمزق بلا نهاية. وعندما يضرب مثل هذا الرعب، سواء من انهيار البرجين التوءمين أو من القناصين التوءمين اللذين يطلقان النيران على الغرباء، هل يمكن للبشر أن يثقوا فى أى شىء غير القوة الساحقة؟ ما الاستراتيچيات التى يجب على ناقدى المذهب الأمريكى الجديد القائم على الأحادية القسرية أن يستخدموها؟ وإذ تعلمت من الماضى، فإننى أفكر فى عدة استراتيچيات:

* لا تتخل عن لغة الأخلاق للجناح اليمينى. إن الازدواجية تبسط الخير والشر على نحو مخل، ولكن ما يزال من الواجب عمل بعض الأشياء لأنها صحيحة، أو ينبغى معارضتها لأنها خطأ. إن معارضى السلام الأمريكى Pax Americana(*) المقصود، لا يجب أن يترددوا فى القول بأن المبادئ الأخلاقية الراسخة منذ زمن طويل تنتهك الآن. إن من الخطإ نقض المعاهدات، على نحو ما تفعل أمريكا فى معاهداتها لمنع انتشار الأسلحة. إن من الخطإ شن حرب عدوانية على نحو ما تفعل أمريكا الآن صراحة. إن اتخاذ القرارات مع أو ضد مثل هذه التصرفات السياسية على أساس پراجماتى خالص إنما هو كسر للرابطة الحاسمة بين الوسائل والغايات، كما لو أن الناتج (تغيير النظام) يمكن أن يبرر ما تم فعله لتحقيقه. وعلى المدى الطويل، يكون الفعل الوحيد الپراجماتى حقًا هو الفعل الأخلاقى.

(*) يشير الكاتب هنا إلى نوع من الهيمنة الإمبراطورية مثل السلام الرومانى Pax Romana الناتج عن بناء إمبراطورية واسعة خاضعة لأمريكا، وليس إلى سلام حقيقى قائم على العدل والتعاون المتبادل بين شعوب الدنيا ـ (المترجم).

* يجب أن نشك صراحة فى «أمن الوطن». فالتقاليد الأمريكية تفضل المخاطر المرتبطة بالحرية على المخاطر المرتبطة بسيطرة الدولة البيروقراطية. إن «دولة أمن الوطن» الجديدة تهدد بنوع من التجاوزات التى جاءت مع «حالة الأمن القومى» بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان مرسوم الأمن القومى سنة ١٩٤٧م، هو الذى أرسى أساس إسباغ الصفة البيروقراطية على الحكومة، مرتكزة على أساس البنتاجون، وهو الذى أدى إلى تهميش الجدل الوطنى وأزال الضوابط الطبيعية لمراكز القوى المتعددة. إذ إن «الأمن القومى» الذى حددته بارانويا الخوف من الشيوعية فى الوطن وفى الخارج، كان أمنًا زائفًا. إن «أمن الوطن» ينذرنا بأن يكون تكرارًا بارانويا.

* يجب أن نكون متشككين فى السياسة الخارجية القائمة على أساس تفكير «أسوإ حالة». ففى أثناء الحرب الباردة صنعت الولايات المتحدة تقديرات مخيفة لإمكانات الاتحاد السوڤييتى ومقاصده اتضح أنها زيف كامل - وهى تقديرات حددت شكل السياسات. فقد كانت المخابرات فى تقديراتها تقدم تقارير منتظمة عن مجرد احتمالات عن التهديد المعادى، وتقدم هذه التقارير من المستويات الأدنى صعوداً فى سلسلة القيادة، بحيث تتحول إلى حقائق معينة بشكل ثابت. وهكذا، تمت المبالغة كثيراً فى قوة القوات السوڤييتية، فى بداية العصر؛ وتمت المبالغة فى قوة الصواريخ السوڤييتية فى المنتصف؛ وفى النهاية كانت القوة السياسية للسوڤييت محل مبالغة. وتمثلت النتيجة فى سباق تسلح قادته أمريكا، ما تزال آثاره تهدد العالم. و«الحالة الأسوأ» فى التعامل مع السوڤييت لم توجد إلاّ فى خيالات واشنطن وأوهامها. ويبدو الآن أن صدام حسين وحالته الأسوأ موجودة فى نفس المكان. إن الأمة التى يسوقها الخوف على هذا النحو سوف تجد دائمًا ما تخاف منه. وأخطر التهديدات التى تهدد الأمة تبرز، بطبيعة الحال، مما تفعله حينذاك للدفاع عن نفسها.

* يجب الحذر من الحرب كمبدأ حاكم للمجتمع. ويجب أن تكون مصدراً للانتباه والحذر، وليس الزهو، أن الولايات المتحدة تستمد مثل هذا العون المتماسك من الحرب العراقية. فالاحتفالات الفوتوغرافية بمقاتلينا الشباب، وتمجيد إطلاق سراح الأسرى الأمريكيين، والطقوس البطولية لقتلى الحرب، كلها تأخذ سمة الاستغلال الشديد للمجندين من الرجال والنساء. إذ إنهم أجبروا أولاً على الوجود فى ظل ظروف

مُلتبسة، وهم الآن أنفسهم يتم إسباغ الصفة الأسطورية عليهم باعتبار ذلك التبرير النهائى لها ـ كما لو أن أمريكا ذهبت إلى العراق ليس للإمساك بصدام (الذى اختفى)، أو تتخلص من أسلحة الدمار الشامل (غير موجودة)، أو لإنقاذ الشعب العراقى (فوضى)، وإنما لكى «تدعم» القوات. وهكذا تصبح الحرب هى مبرر ذاتها. مثل هذا الارتباك حول هذه النقطة الخطيرة يعنى أن هناك أمة ضاعت.

* * *

الوعى الأخلاقى فى كوريا

٢٩ أبريل ٢٠٠٣م

«النسيان هو طريق النفى» هذا نص النقش الموجود فى ياد ڤاشيم. «والتذكر هو طريق الشفاء». إن ياد ڤاشيم هو النصب التذكارى للهولوكوست فى القدس، واليوم هو يوم ذكرى الهولوكوست. ويصمت اليهود فى كل مكان ليفكروا فى ستة ملايين يهودى ذبحهم النازى(*). وفى إسرائيل نفسها يتوقف كل شىء على مدى فترة صمت طويلة. وإذا كان لدى اليهود سبب يدعوهم إلى أن يتذكروا ما حدث فى قلب أوروبا فيما بين سنة ١٩٣٣م وسنة ١٩٤٥م، فماذا يفعل غير اليهود أكثر من ذلك؟

إن التذكر يمكن أن يقدم الأچندة الضيقة ـ الانتقام، الاستثنائية، تقمص دور الضحية، الذئب ـ ولكن التذكر يمكن أيضا أن يؤدى إلى الفهم والتغيير. فالذاكرة مصدر أساسى للوعى الأخلاقى، وهى طريق للوصول أخيرًا إلى ما نفعله دون أن نقصد؛ طريق لمواجهة حقيقة أنه حتى الفعل الذى يظهر أنه فعل فاضل يمكن أن ينحط

(*) استغلت الصهيونية «الهولوكوست اليهودى» لتبرير «الهولوكوست الفلسطينى»، رغم أن الفلسطينيين والعالم العربى بأكمله ليس مسئولاً من قريب ولا من بعيد عن «الهولوكوست اليهودى»، ورغم أن «الهولوكوست الفلسطينى» واقع حى يعيشه ويعانيه العالم المعاصر، علانية منذ أكثر من خمسين عامًا، بدأت بمذابح دير ياسين، ومذبحة جنين، واغتيال الطفل محمد الدرة، واغتيال الشيخ المقعد ياسين، ورغم الاختلاف الكبير على وقائع «الهولوكوست اليهودى» حتى إن بعض المؤرخين الأوروبيين واليهود يقللون من كيفها وكمها، وإلى درجة نفيها تمامًا، حتى ضغطت الصهيونية على كثير من الدول لإصدار قوانين تجرم من يشكك فيها. ويمكن لمن يريد الاستزادة عن هذا الموضوع أن يقرأ «محاكمة جارودى» أو «تقرير لوشتر» (المترجم).

بالانحياز أو الأنانية . والأكثر من ذلك ، فإن الذكرى بوصفها انعكاسًا أخلاقيًا يمكن أن تقدم ، على حد تعبير الفيلسوف السياسى «حنا آردنت» : «العلاج الممكن من ورطة عدم إمكانية الإلغاء» . وفيما يتصل بالهولوكوست ، فإن هذا يعنى أن غير اليهود يتذكرون هذا الإخفاق الأكبر بين الإخفاقات الأخلاقية بحيث يستوعبون المعنى الكامل لمعادلة السامية التى أدت إليه . والهدف من فعل ذلك ، بطبيعة الحال ، هو التوبة عن مثل هذا الانحياز واستئصال مصادره . وبذلك يكون التذكر عرضا للحرية من الطغيان ليس فى الماضى فقط وإنما فى الحاضر ؛ فالأشياء تحتاج إلى أن تكون ما هى عليه حقًا . فالذاكرة الأخلاقية تخلق مستقبلاً أفضل .

إن الكشف الدائم عن طريقة التفكير هذه تصبح واضحة عندما نطبقها على الصراع الوشيك بين الولايات المتحدة وكوريا . وليس هذا بقصد عقد مقارنة مع الهولوكوست ، وإنما لكى نتعلم من حالة الوعى الأخلاقى التى يجعلها الهولوكوست ممكنة . وبينما تتصاعد المواجهة بين واشنطن وبيونج يانج ، فإن إحراز « الشفاء من ورطة عدم التغيير » يصبح ضرورة عالمية ملحة . إن الأمريكيين يدينون للمستقبل القريب والمستقبل البعيد بأن يتذكروا أن هذا الصراع قد نشأ أصلاً بوصفه صراع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتى ـ وهو انفجار وحشى لسوء الفهم وسوء الحسابات يتحمل كل من الجانبين المسئولية عنه . وقد تسببت الحرب الكورية التى اندلعت فيما بين سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥٣م فى تعزيز أسوإ نبضات الخوف الحربية لدى أمريكا . وقد أدت إلى تطوير القنبلة الهيدروچينية وجعلت صانعى القرار يصمون آذانهم عن دعوات العلماء من أمثال چ . روبرت أوبنهايمر الذى أراد إيقافها . وكون أن أوبنهايمر نفسه كان كبش فداء يحدد أبعاد المأساة ؛ لأن الحرب الكورية تم شنها فى الوطن أيضًا . فقد أشعلت حمى بارانويا الخوف من الشيوعية التى أعمت صانعى السياسة الأمريكية على مدى جيل ، بحيث أدت إلى ڤيتنام وأدت كذلك إلى سوء فهم مقاصد الاتحاد السوڤييتى وإمكاناته على مدى عشرات السنين .

عندما صار دوايت أيزنهاور رئيسًا فى يناير سنة ١٩٥٣م ، صعد من خطاب التهديد بطريقة ثبتت الحرب الباردة بوصفها من ملامح العلاقات الدولية . وعندما مات چوزيف ستالين فى شهر مارس آنذاك ، رفض أيزنهاور العرض المفتوح الذى قدمه الزعيم السوڤييتى الجديد ، چورچى مالينكوڤ . وبدلاً من ذلك ، أوضح أيزنهاور

استعداده لحل الصراع الكورى باستخدام الأسلحة النووية ـ «دونما كابح فى استخدامنا للأسلحة» . كانت هى العبارة التى استخدها فى مذكراته ـ لدرجة أنه عندما وافق الصينيون والسوڤييت أخيراً على الهدنة فى شهر يوليو ، أخطأت واشنطن فهم الإشارة بأن الشيوعية بعد ستالين ستكون مختلفة . وإذ افترضت واشنطن أن موسكو وبكين قد انحنيتا أمام التهديد بالحرب النووية ، فإنها أخذت استسلامهما على أنه تأكيد على خيارها المميت لبناء النفوذ الأمريكى حول القنبلة . وذلك ما يبرر النمو الصادم فى اعتماد الولايات المتحدة على الأسلحة النووية ، وهو ما اتضح مغزاه بالنسبة لى على أيدى كتاب من أمثال چون شتاينبرونر ، وچيمس ت . پاترسون ، وچان نولان . وفى سنة ١٩٥٠م ، كانت الولايات المتحدة تمتلك حوالى ٢٥٠ قنبلة نووية ، وبعد ذلك بعشر سنوات وصل العدد إلى حوالى عشرة آلاف . وتتطلب الذاكرة الأخلاقية منا أن نتعرف على ذلك النمو نفسه بحسبانه الإخفاق المركزى فى استجابة أمريكا للحرب الباردة .

والقنبلة الآن هى نقطة الصراع بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية . ولو كان الأمريكيون قد أحسنوا عملاً بحساب الميراث الأخلاقى لاعتمادنا على الأسلحة النووية ، لكنا قد رأينا بمزيد من الوضوح كيف أن أچندة بيونج يانج النووية غير المقبولة قد نشأت أصلاً من واشنطن . ولأصبح موظفو الولايات المتحدة أقل تظاهراً بالأخلاق ، ولاستوعب كل الأمريكيين مأساة تجديد الاعتماد على الترسانة النووية فيما بعد الحرب الباردة .

ولا شىء من هذا يعفى من الحكم على الطغيان الفاسد الذى يتولى رئاسة كوريا الشمالية ، ولا إدانة التهديد الذى يحمله الابتزاز النووى من جانب كوريا الشمالية . ولكن الصراع بين واشنطن وبيونج يانج ليس بأى حال من الأحوال مسألة مواجهة بسيطة بين الخير والشر . إن الخطر الحالى ينبع من أفعال أمريكا وكذلك من أفعال كوريا الشمالية ، وبحساب كامل للحماقات العمياء فى ذلك الماضى فقط ، مهما كانت مقاصدها الطيبة ، يمكن أن نُعد لمستقبل مختلف أكثر حكمة .

* * *

السلاح المطلق

١٣ مايو ٢٠٠٣م

فى الأسبوع الماضى صوتت لجنة الخدمات المسلحة بمجلس الشيوخ لصالح السماح بتطوير أسلحة نووية منخفضة القدرة - وهو نقيض الحظر الذى كان فعالاً منذ سنة ١٩٩٣م. وبحسب التقارير الصحفية وافقت اللجنة أيضًا على تمويل دراسة عن الأسلحة النووية المدمرة للمخابئ، وكذلك تمويل الإسراع فى الإعداد للاختبارات النووية تحت الأرض. هذه القرارات، التى تم اتخاذها استجابة لطلب إدارة بوش، لم تكن مفاجأة فى ضوء تقرير الوضع النووى الذى صدر فى يناير ٢٠٠٢م، ولكنها تحسب بحسبانها الخطوات الأولى فى تنفيذ السياسة النووية الجذرية الجديدة للإدارة.

وحسبما أوردت جريدة NewYork Times، فإن اقتراحات لجنة مجلس الشيوخ قد سجلت لكى تنظر فيها لجنة مجلس النواب للخدمات المسلحة اليوم، ثم المجلس كله فى الأسبوع القادم. وفى كل من هاتين اللجنتين، لا بد أن يعارض الديمقراطيون بقوة محاولات إدارة بوش الخطيرة لإعادة تشكيل علاقة أمريكا بالأسلحة النووية. وهذه هى الأسباب:

* إن المقترحات تؤدى إلى نسبية «السلاح المطلق». ففى سنة ١٩٤٦م، بعد شهور فقط من قصف هيروشيما، نشر المنظِّر السياسى برنارد برودى كتابًا عنوانه «السلاح المطلق» - وهى أول إقرار بحقيقة أن الأسلحة النووية فريدة فى بابها، وقد غيرت الشئون الحربية إلى الأبد، ويجب دائمًا تقديرها بشكل منفصل. وصار ذلك محل إجماع من يديرون شئون الحكم بالعالم، وهو مفتاح إلى حقيقة أن الأسلحة النووية لم تستخدم قط خلال الحرب الباردة. وأى تشويش على التمييز بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية كان يؤخذ على أنه يحرك العالم عبر العتبة النووية مرة أخرى - إلى الكارثة، ذلك هو الإجماع الذى تلويه إدارة بوش بالخلط بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية بوصفها «أسلحة الضربة الهجومية» وباقتراح تطوير أسلحة نووية ذات قدرات منخفضة «يمكن استخدامها» كجزء من الترسانة القياسية.

* هذه الاقتراحات، إذا ما تم تفعيلها، سوف تفاقم «معضلة الأمن»، وهى عبارة تشير إلى التناقض الداخلى الذى عرفته الحرب الباردة. وعلى حد تعبيرعالم السياسة

روبرت چيرفيس : « إن الزيادة فى أمن دولة واحدة، سوف تؤدى تلقائيا إلى خفض أمن الدول الأخرى» . والحركية حتمية : عندما تزيد دولة واحدة من قدرتها العسكرية ، فإن الدول الأخرى تتخذ خطوات لمجاراتها . وبالمقارنة مع النفقات الهائلة والقوة التقليدية التى لاتنافس التى يمتلكها الأمريكيون الآن، فإن القدرة النووية (مثل القدرة الكيميائية والبيولوچية) تكون رخيصة ويمكن حيازتها بسهولة نسبية . وتتعقد معضلة الأمن .

* هذه الاقتراحات، إذا ماتم تفعيلها، سوف تنتهك الفقرة ٦ من معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، التى تلزم الولايات المتحدة (مثل سائر القوى النووية) بأن تعمل فى اتجاه التخلص من الأسلحة النووية ، وليس فى اتجاه جعلها عادية . إن تخلى إدارة بوش فعليّا عن نظام الحد من انتشار الأسلحة ربما يكون أسوأ حماقاتها، وفى انتهاكها معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية ستكون الإدارة قد انتهكت قانون الولايات المتحدة. وفى دفاع بوش، حسبما قال سيناتور جمهورى الأسبوع الماضى، «إن التجربة قد أظهرت أن معاهدات الحد من انتشار الأسلحة ليس لها حقّا أى تأثير على بلاد مثل كوريا الشمالية والهند وپاكستان» . ولكن ماذا عن بلاد مثل البرازيل وجنوب إفريقيا، أو السويد؟ هل نريد حقّا عالما تجد كل أمة فيه سببًا ملحّا جديدًا يدعوها إلى خلق ترسانة نووية؟ إن الولايات المتحدة تقابل التحدى من جانب من يسمون الأوغاد النوويين بأن تتصرف مثل واحدة منهم .

* كل هذا يجعل الولايات المتحدة أقل أمنا، وليس أكثر أمنًا . والواقع، أن نفس فكرة «الأمن القومى» قد صارت أسطورية . إن المعنى الوحيد الذى يمكن أن يكون «للأمن القومى» الآن يفترض وجود نوع من التعاون العالمى المتبادل، نظام من الاعتراف ـ تفرضه الاتفاقيات ـ بالاعتماد المتبادل بين الدول سوف يؤدى إلى ضبط الميول الإفتائية للمجموعات التى تعمل بمعزل عن الحكومات، وهو التهديد الحقيقى فى العالم اليوم . إن سياسة إدارة بوش النووية تتحرك بالضبط فى الاتجاه المعاكس، بحيث تحافظ على نظام عفى عليه الزمن من المنافسة الوطنية التى أوشكت على تدمير العالم مرتين . وأولئك الذين يفكرون فى هيمنة أمريكا الجديدة كإمبراطورية ما يزالون منغرسين فى القرن التاسع عشر، إن قوتنا الفائقة لن تحمينا فى عالم توجد فيه طرق للدمار الشامل والعنف الشامل رخيصة ولا يمكن إيقافها، بسبب التكنولوچيا الجديدة ونظم المعلومات الجديدة .

* إن هذه الاقتراحات تمثل إخفاقًا كاملاً لتخيل ما تبدو عليه مثل هذه التحركات بالنسبة للأمم الأخرى، سواء أصدقاؤنا أو خصومنا. وحسبما توضح الحرب فى العراق، فإن الولايات المتحدة هى البلد الوحيد فى العالم التى لا تلزمها زيادة فى قدراتها النووية إطلاقًا. وربما تسأل البلاد الأخرى عندئذ: لماذا تستعد الولايات المتحدة لاتخاذ مثل هذه الخطوات؟ ربما تكون دوافع واشنطن هى الخير الأخلاقى فى عالم يسوده النظام، ولكن نزعتها العسكرية التى ارتضتها لنفسها يمكن فقط أن تبدو للآخرين، بمن فيهم الأصدقاء، مثل مباهاة متغطرسة. فهل هذا حقًا ما صارت عليه الولايات المتحدة؟

وبينما يمر موسم الانتخابات الرئاسية، فإن الفروق بين الديمقراطيين والجمهوريين تتلاشى، كما لو كان الديمقراطيون عازفين عن لفت الانتباه إلى معارضتهم الخجول لثورات بوش الكثيرة. ولكن إطاحته الجذرية بالحذر النووى ما يزال حتى الآن أخطر المسائل التى تواجه هذه الأمة. ونحن نعرف ما الذى سيفعله الجمهوريون إزاء ذلك. وإذا ما بدأنا اليوم يكون السؤال الملح: ماذا عن الديمقراطيين؟

* * *

(١٢)

اعترافات

فى ١ مايو ٢٠٠٣م، هبط الرئيس بوش على ظهر حاملة الطائرات يو. إس. إس إبراهام لنكولن وخاطب القوات أمام علم كبير معلنًا «المهمة أنجزت». وقال: «رفاقى الأمريكيين، لقد انتهت عمليات القتال الرئيسية فى العراق، وفى معركة العراق، انتصرت الولايات المتحدة وحلفاؤها».

وحتى بالنسبة لأشد مؤيدى الحرب الأمريكية فى العراق، اتضح بسرعة أن هذه الحرب لم تكن ناجحة. وبينما تتصاعد الفوضى والعنف عقب الحرب، تبدو تكاليف ما يسمى الآن «إعادة الإعمار» أكبر من أى مكاسب محتملة. ففى أكتوبر، استبعد بوش نفسه شعار «المهمة أنجزت»، زاعمًا أن الذى وضعها هم أفراد طاقم حاملة الطائرات. وفيما بعد كان على البيت الأبيض أن يعترف بأن الشعار قد تم عمله بناء على أوامر منه.

وأمام هذا الشعار، على متن حاملة الطائرات، كان بوش قد تباهى بقوله: «من القواعد البعيدة أو السفن فى البحار، أرسلنا الطائرات والصواريخ التى تمكنت من تدمير فرقة للعدو أو ضرب أحد مخابئه». بيد أن مثل هذه الأسلحة لم تستطع أن تفعل شيئًا للقلوب التى داهمها الحزن أو العقول التى ينتابها الشك لأولئك الذين كانت الحرب، ظاهريًا، من أجلهم. فقبل وقت طويل كانت الحقيقة قد اختفت. والكلام السهل عن «إمبراطورية» والذى كان سمة من سمات خطاب مذهب بوش طوال عام ٢٠٠٢م كان قد اختفى بمنتصف سنة ٢٠٠٣م. وعلى المدى الطويل، ربما تتمثل أهم نتائج «عملية الحرية العراقية» فيما لم تؤد إليه. ذلك أن فكرة السيادة العسكرية المهيمنة كانت تعنى أن الولايات المتحدة الفخورة بنفسها يمكن أن تفرض فكرة النظام على العالم قد انكشفت فى العراق بالقدر الذى أوضح أنها وهم صاخب.

كذلك اتضحت أمور أخرى. إذ إن حكومة آرييل شارون، التى سارت على خطى واشنطن فى مملكة «حيًا أو ميتًا» جعلت إسرائيل أكثر تعرضًا وانكشافًا عن ذى قبل، حسبما أوضح حتى جنودها المحنكون ذوو العقليات الصلبة. كما أن التشدد الإسلامى المشتعل، والذى ارتبط بعودة صادمة لمعاداة السامية [فى أوروبا] قد وضع اليهود جميعا فى موضع الخطر. ففى أمريكا تم تجذير الاختلافات السياسية. وانكشف عدم الأمانة بوصفها من سمات سياسة الحرب التى انتهجتها إدارة بوش، بينما كانت مراوغات بوش حول التعليم والبيئة والرعاية الصحية والضرائب وعجز الميزانية، قد انكشفت عارية.

* * *

طقس سيئ فوق أمريكا

٢٧ مايو ٢٠٠٣م

متى سينتهى الطقس السيئ؟ لماذا هذه المسافة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون؟ أين أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها صدام حسين؟ وإذا كان يمثل تهديدًا بهذا الشكل، فلماذا يبدى جيشه هذا الأداء السيئ؟ هل يهم أين هو؟ وإذا لم تكن الحرب فى العراق حول البترول فلماذا تصر الولايات المتحدة على سيطرتها غير المحدودة؟ وإذا كانت الحرب، بدلاً من ذلك، حول الديمقراطية، فلماذا يتم استبعاد الشعب العراقى، بما فى ذلك أعداء صدام حسين، من السلطة؟ هل سيصبح العراق مثل أفغانستان، حيث يحكم سادة الحرب ويزدهر الهيروين؟ هل هناك انتحاريون بالقنابل الآن أكثر من ذى قبل؟ هل أدت الحرب الأمريكية على الإرهاب إلى تحسين السلامة؟ كيف صارت العلاقات بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين على هذا القدر من الهشاشة؟ هل سيعترف التاريخ بالرابطة الأنجلو أمريكية بوصفها مجرد استمرار للإمبراطورية البريطانية فى القرن العشرين؟ ماذا تفيد النوايا الطيبة إذا ما أدت إلى الغرق؟ وهل الطقس السيئ نتيجة انخفاض جوى سوف يرتفع دونما إجابات؟

لماذا يتم تخفيض الضرائب على حين أن المدرسين وأمناء المكتبات يتم الاستغناء عنهم؟ ماذا حدث لحملة الإصلاح المالى؟ لماذا تنقسم الولايات المتحدة على أساس

العرق أكثر من ذى قبل؟ متى حدث أن قرر مواطنوها أن يتخلوا عن الخصوصية من قبل؟ كيف يمكن لأصحاب الدخول المنخفضة أن يعيلوا عائلاتهم؟ إلى متى سوف تكون الطبقة الوسطى قادرة على متطلبات التأمين الصحى؟ لماذا يأكل الأمريكيون هذا القدر الكبير من الطعام الردىء؟ هل التليفزيون فى أوقات ذروة المشاهدة يعكس صورة الأمة؟ من الذى يعلم الأطفال أن يجلبوا البنادق معهم إلى المدرسة؟ ما الذى يحدث للمراهقين الذين يستوفون كل متطلبات التخرج باستثناء الامتحان الذى لا يمكنهم اجتيازه؟ كم منهم سوف يفشلون فى اجتياز ذلك الامتحان لأن مدرسيهم تم فصلهم؟

مثل هذه الأسئلة المستحيلة تقطع شوطًا طويلاً فى اتجاه شرح المزاج الأمريكى، ونحن لا نستطيع الإجابة عنها، ولذلك فنحن لا نطرحها، كما أن المناخ العاطفى حقير. ومن ثم فإن هياج چورج دبليو بوش الزائف بشكل واضح ـ وهو الرجل الذى لا تساوره الشكوك ـ هو الرمز الكامل لأمة متخبطة لدرجة أنها لا تجرؤ على النظر مرتين إلى حالها الحقيقى. ومهما كانت الأسباب الفنية وراء ذلك، فإن الاقتصاد الذى يستعصى على الشفاء يتوافق بشكل كامل مع جمود نفسى واسع يعوق معرفة الذات. لماذا يكون الأمريكيون غير قادرين على النظر مباشرة إلى ما نفعله وإلى ما نصير عليه؟ فى الخارج، تشن الولايات المتحدة حربًا بمثل هذه الذرائع المتبخرة والتى حينما تتبدد مع أول هبات نحيب الحداد، لا يلاحظ الأمريكيون شيئًا. لقد تمت الإطاحة بتراث قوى من العالمية التعددية دونما معارضة سياسية أو حتى نقاش سياسى. وثمة حلم ليبرالى قديم بالفيدرالية العالمية، أى الأمم موحدة بوصفها شركاء ديمقراطيين فى حكم عالمى، قد استبدل به برنامج عن أحادية القطب الأمريكى، أى حكومة عالمية تدار من واشنطن بالأمر، ومن الذى فى واشنطن يتساءل عن هذا؟

فى الوطن ثمة حزن قلق يكمن تحت الحياة المدنية. ويبدو مستقبل الناس غير مضمون بشكل مرعب. أما أوقات الفراغ فهى رفاهية منسية، وهو أمر ليس سيئًا كله؛ لأن الفراغات البيضاء فى دفتر المواعيد تثير الإحساس بانعدام الأمن أكثر من أى شىء آخر. أما العلاقات الحميمة فقد تحملت عبء ما لا تتم مناقشته، كما أن كرسى الاعتراف الذى ربما كان الناس فيما مضى يحملون إليه مثل هذه الأسرار قد بات الآن خطيرًا. ذلك أن الأزمة الكاثوليكية، التى أحلت جماعة كاملة من وشائج السلطة

والمعنى، وتؤثر بشكل مباشر فى جزء فقط من سكان الوطن، ما تزال تبدو أيضًا أزمة أمريكية تمامًا. والحزن سياسى بقدر ما هو دينى.

وفى أمريكا تبدو كل نعمة الآن وكأنها تحمل نقمة. فهل حريتنا آمنة؟ نعم، بواسطة حكومة يمكنها أن تتنصت على كل محادثة. هل يتم إطعامنا بشكل جيد؟ نعم إلى حد البدانة. هل الرعاية الصحية لدينا ممتازة؟ نعم إلى درجة الإفلاس. هل نحن أثقل الشعوب تسليحًا فى التاريخ؟ نحن كذلك بشكل مخيف. هل النجاح غير المسبوق للمشروع الوطنى فى الجيل الأخير يبشر بالخير للجيل التالى؟ من الواضح لا. هل نجرؤ على أن نسأل لماذا؟

ثمة إجابة واضحة فى هذا اليوم بالذات فى العراق. ذلك أن المسافة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون واسعة بحيث لا يمكن إبقاء الأمريكيين جاهلين به يتطلب عملاً من تعمية الذات الجماعية. إن المزاج الوطنى القاتم له أسباب كثيرة، ولكن أحد هذه الأسباب يصرخ بأعلى صوت لكى يتم حسبانه فى الحال. لقد كانت الحرب العراقية حزمة من الأكاذيب، كما أن حرب واشنطن على الإرهاب هى معالجة تدعو للسخرية للمخاوف من أجل القوة. وحتى الآن شارك مواطنو الولايات المتحدة بإرادتهم فى تمثيلية الفوازير التى قادها بوش. لقد فعلنا ذلك بدافع من شعور عدم الأمان الذى طلبوا منا ألا نشعر به، كما لو أن تمثيلية الفوازير، أيًا كان القدر الذى تتسبب به فى إغراق العالم، سوف تحمينا. ولكن حزننا الكامن يشير إلى ما نحتاج إليه لكى نعرف. ولم يكن مقصودًا أن تصبح أمريكا هكذا. نحن لم نعد نحن. إن الطقس السيئ لن ينتهى حتى نواجه هذه الحقيقة الباردة ونغيرها.

* * *

معاداة السامية وإسرائيل

٢٠ مايو ٢٠٠٣م

بسخرية تأخذ الأنفاس أحدثت حماس هذا الأسبوع ثغرة فى طريق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين ـ فقد حدثت أربع هجمات انتحارية فى اثنتى عشرة ساعة من بينها هجمة وحشية بشكل خاص وقعت فى القدس. وتم تأجيل لقاء بوش وشارون الذى كان مقررًا أن يتم اليوم، وفرضت إسرائيل إغلاقًا تامًا على الضفة الغربية، وصار

التحدى الذى يواجه صناع السلام الفلسطينيين أشد قسوة. وكل من يحب إسرائيل، على حين يؤكد على الآمال الفلسطينية، قد خارت شجاعته.

من الممكن إدانة الاستسلام الفلسطينى الواسع للتطرف العدمى الذى يرعى مثل هذه القسوة دون أن يسقط فى تعصب دائم ضد الفلسطينيين. وكون أن المطلب الفلسطينى الصحيح بالعدل يغوص إلى هذا الحد فى الدماء يقطع اعتماده على الضمير العالمى بشكل قاس، ولن يكون من قبيل إظهار الكراهية العنصرية أن نقول كذلك. بيد أن انتقاد إسرائيل أمر أشد تعقيداً. إن احتلال إسرائيل للضفة الغربية وغزة «بالقوة الساحقة»، مع استراتيچيات العقاب الجماعى، وعمليات الاغتيال غير القانونية، والسياسة الجارية بالتحفظ على الأرض المتنازع عليها «بحقائق» المستوطنات اليهودية، أمر يستحق الإدانة، وغالبا ما يحدث هذا ـ من جانب كثير من الإسرائيليين واليهود الأمريكيين، وكذلك من جانب آخرين يوضحون أن معارضتهم إنما هى موجهة إلى سياسة إسرائيل، وليس ضد اليهودية.

ولكنها حقيقة كذلك أن النقد ضد إسرائيل يحفزه التعصب القديم الذى ميز معاداة السامية. ويبدو هذا أكثر وضوحًا فى بعض البلاد العربية(*)، ولكن فى أوروپا أيضا وأمريكا حيث يتحول النقد السياسى لحكومة شارون إلى احتقار متصاعد. وقد اجتمعت مؤتمرات عاجلة حول موضوع العداء للسامية التى بعثت من جديد هنا وفى الخارج. وفهم هذه الظاهرة القبيحة مهم لثلاثة أسباب: لمعارضة اللاسامية، ولتأكيد الحالة السوية بالنسبة لإسرائيل، مثل بقية الدول الأخرى، التى تأخذ النقد الموجه لممارسة القوة على أنه أمر مسلم به، ولكى نفكك أحد العناصر المتفجرة التى تبقى على النزاع الإسرائيلى ـ الفلسطينى على هذه الدرجة من التفجر.

وهناك سمتان من سمات التفكير المعادى للسامية تؤديان دورهما هنا: أولاهما يمكن تسميتها الاحتفال «باليهودى المثالى» الذى يؤدى إلى تشويه السمعة بواسطة الإفراط فى الشعور بالأهمية. فاليهود كما هم فى الحقيقة يتم قياسهم على أساس

(*) على الرغم من أسطورية التقسيمات العرقية على أساس «العهد القديم» فى الكتاب المقدس؛ فإن العرب بحسب هذه التقسيمات «ساميون». وليس منطقيًا أو بديهيًا أن يكون العرب معادين «للسامية». (المترجم).

اليهود كما ينبغى أن يكونوا، ودائمًا ما يتم اكتشاف أنهم أقل من ذلك. ويمكن أن يتضمن هذا افتراضًا من العهد الجديد بأن شعب الله المختار كان عليهم بالتأكيد أن يعترفوا بيسوع على أنه المسيح المخلص؛ والغضب المسيحى الذى ينتمى إلى العصور الوسطى ضد التلمود باعتباره إنكارًا لكفاءة يهود العهد القديم؛ وغضبا فى عصر النهضة ضد «العشائرية» اليهودية التى تعقد المواطنة اليهودية؛ أو التناقض المعاصر بين المثالية الاشتراكية فى الكيبوتزات والواقعية السياسية التوفيقية فى دولة إسرائيل بعد سنة ٤٨، وفى كل حالة يتم استخدام اليهودى المتخيَّل لتبرير احتقار اليهودى الحقيقى. وهكذا يتم النظر إلى الإسرائيليين بشكل عام فى ضوء مقاييس العدالة التى لا يجاريها الفلسطينيون، ولا إدارة جورج بوش. وعلى أى حال، فإن «القوة الكاسحة»، التى استخدمها بوش هى الرخصة التى يحملها شارون.

أما السمة الثانية، فهى إشارة دالة على التفكير المعادى للسامية تتمثل فى الميل إلى تعريف «اليهودى» بشكل أحادى، كما لو كانت هذه المجموعة شيئًا واحدًا فقط. وهكذا، فإن الانتقادات الموجهة ضد إسرائيل يتم تصعيدها بشكل روتينى خارج إسرائيل مع قدر قليل من الاهتمام بالأصوات اليهودية داخل إسرائيل التى تثير بإخلاص مسائل معاناة الفلسطينيين. حقًا، كما تظهر صناديق الانتخاب، أنه فى زمن الرعب الحالى، تستحوذ حكومة شارون على تأييد واسع من الناخبين الإسرائيليين، وحقًا أيضا أن غالبية الإسرائيليين يفضلون الاتفاق والتنازل من أجل السلام، مثل تفكيك المستوطنات ودولة فلسطينية قابلة للبقاء. وعندما يتم الحكم بقسوة على إسرائيل، فربما يسأل المرء؛ أى إسرائيل؟ هل هى إسرائيل التى تمثلها جريدة چيرو سالم پوست أو إسرائيل التى تمثلها هاآرتس؟ هل إسرائيل الليكود؟ أم إسرائيل حزب العمل؟ وأى يهود؟ آرييل شارون أم توماس فريدمان الصحفى؟ السناتور چوزيف ليبرمان أم الناشر ميخائيل ليرنر؟

إن عجز كثير من منتقدى إسرائيل عن تجنب الإدانة الكاسحة «لليهود» يكرر الغلطة المسيحية الأساسية ـ النظر إلى «اليهود» بنفس الطرق الأحادية السلبية القديمة التى ترى أن يسوع لم يكن ينظر إليه بوصفه من هذا الشعب. ومن المهم أن نعترف بأن ثمة انحيازًا مسيحيًا خاصًا يقوى أحيانًا هذا النقد الكاسح، كما يتضح فى كل مرة يقوم فيها

الجيش الإسرائيلى بحصار مواقع المتشددين الفلسطينيين فى بيت لحم ويتم تصويره على أن «اليهود» ضد يسوع مرة أخرى.

لقد عادت اللاسامية، وربما لا غرابة فى هذا. وعلى الرغم من إنكار الحكومة الأمريكية، فإن الحرب على الإرهاب، مع الحرب ضد العراق المرتبطة بها، قد تم تصويرها، للأسف، على أنها صراع خطير بين «الغرب والباقين». ويسود شعور، فعلا، بأنها حملة صليبية جديدة. لقد بدأت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) حربًا ليس ضد الإسلام فقط فى المدينة التى تمثل نقطة الضوء (حينذاك والآن) وهى مدينة القدس، ولكن ضد اليهود فى قلب أوروبا. لقد حدثت المذابح الأولى على امتداد حوض نهر الراين فى تلك السنة. وكما أكدت من قبل، فإن الجانب الخفى فى هجوم شامل ضد عدو ما فى الخارج هو خوف بارانويى من عدو فى الداخل. واليوم فى أوروبا وأمريكا، فإن الخوف يجعل المسلمين والمهاجرين من الأمم العربية مشتبها فيهم، ولكن فى الحضارة الغربية كان العدو فى الداخل بامتياز هم اليهود. ولكى ندرك هذه الحركة الثنائية يعنى أن نكون واعين لخطرها الشديد، وهى الخطوة الأولى فى إلحاق الهزيمة النهائية بها.

***

الألم والأمل الفلسطينى

٣ يونيو ٢٠٠٣م

إن رفض إدارة بوش توريط نفسها فى حل نزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين كان أحد أسوإ نتائج الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر. وهناك أمل بأن مقابلة الرئيس غداً مع الزعيم الإسرائيلى آرييل شارون والزعيم الفلسطينى محمود غباس فى الأردن تكون علامة على تغير فى موقف كل من الخصمين وموقف واشنطن بالمثل.

فعندما شعر الأمريكيون بأنهم معرضون للتخريب الذى يحدثه الإرهابيون الانتحاريون، وجدوا طريقة جديدة فى التوحد مع مواطنى إسرائيل، حيث يقوم انتحاريو القنابل بشن مثل هذا التخريب المنتظم. وقد عزز رد فعل واشنطن المفرط فى نزعته الحربية من استجابة حكومة شارون. وتم تكثيف التحالف التقليدى بين الولايات

المتحدة والدولة اليهودية . وبعد ١١ سبتمبر أخبرنى صديق إسرائيلى «الآن أنت تعرف ما يكون عليه إحساسك» . وكان ذلك حقًا .

بيد أن سؤالاً آخر يطرح نفسه : هل لدى الأمريكيين أدنى فكرة حقيقية عما يعانيه الفلسطينيون بعد أن تعاطفوا مع المشاعر الإسرائيلية؟ دعك من تعقيدات النزاع السياسى لكى نركز على عواقبه الإنسانية المعروفة بدرجة أقل . فقد تم استيعاب الشخصية الفلسطينية بطريقة نمطية ، كما لو كان كل مواطن بالقدس الشرقية أو رام الله على استعداد لأن يقتل الأبرياء - أو أنهم يرسلون أولادهم لكى يفعلوا هذا . لقد غيم الإرهابيون على الدعاوى الفلسطينية ، ولكنهم هم ومؤيدوهم يمثلون قسمًا فقط من السكان الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة والضفة الغربية وغزة . ويمثل انتحاريو القنابل مصدر رعب لكل هذه الملايين أيضا . إن الأمريكيين يجب أن يلتفتوا إليهم الآن ويتعاطفوا معهم . ويجب الاعتراف بتجربتهم . وإذا استوعب الأمريكيون الأبعاد الكاملة للمعاناة الفلسطينية ، فإنهم لا بد وأن يصروا على أن تبذل حكومة الولايات المتحدة جهدا لكى تنهى معاناتهم بتجديد العمل من أجل السلام .

إن النقطة الثابتة التى ما يزال الخيال الأمريكى العاطفى يمكن أن يتحول نحوها بشكل مثمر أكثر من غيره هى ورطة الأطفال الفلسطينيين . إذ يقرأ الأمريكيون تقارير الأخبار عن سوء التغذية المستشرى الذى أدى إلى إصابة نسبة كبيرة من الرضع والصغار فى الضفة الغربية وغزة . ولكن هل يدركون حقًا معنى كلمة «سوء تغذية»؟ الطفل الناقص الوزن بشكل مخيف . الأم المعذبة . والطبيب غير قادر على المساعدة . والمدرس يدرك استحالة تعليم الطفل . والأب مَسُوق إلى أعماق العار واليأس . وعمال الإغاثة غير قادرين على تسليم ما هو مطلوب . وكل هذا مضاعف بالآلاف . وأكثر من مليون شخص فى الضفة وغزة ، منهم مئات الآلاف فى معسكرات اللاجئين يعتمدون على الوكالات فى طعامهم ، ولكنهم يحتاجون إلى مساعدة سريعة . وبدأت مستويات الفقر بين بعض الفلسطينيين تقترب من مستوياته فى أفقر أمم العالم .

وكل هذا أعقب إغلاق الحدود والقيود التى فرضت على الحركة التى منعت الفلسطينيين من الذهاب إلى أعمالهم ، وأدت إلى انهيار الاقتصاد . وزاد عدد الشبان

العاطلين، لكى يشكلوا الوسط الذى يمكن لحماس أن تجند منه مقاتليها. بيد أن الإجراءات الصارمة لها تأثيرات أخرى أيضًا. إذ إن حالات منع التجول التى يفرضها الإسرائيليون المحتلون بشكل روتينى تخضع أعدادًا كبيرة من الفلسطينيين لنوع من الاعتقال المنزلى الفعال، مما يؤدى إلى ثقافة الخوف من الأماكن المغلقة. ويمكن أن تبدو غزة، بشكل خاص، موضعًا للاحتجاز على نطاق واسع. ويحمل الأطفال وطأة هذا أيضا. على حين تتهشم العائلات والجماعات تحت عبء مثل هذا الضغط غير الإنسانى. وفى الوقت نفسه، يلتهب العنف حول أكثر الناس براءة، مع الكثير جدًا من الأطفال الذين راحوا ضحايا الصراع. لقد رأوا آباءهم وإخوتهم وأعمامهم وأخوالهم وأمهاتهم أحيانًا يقتلون - غالبًا من مسافة قريبة جدًا؛ لأن ساحات المعارك فى هذه الحرب هى المناطق المجاورة. وأسلحتها، بالإضافة إلى البنادق والطائرات والدبابات هى البلدوزرات التى هدمت المئات من منازل الفلسطينيين. كم من حالات الهدم هذه شملت الأركان الغالية التى كان الأطفال حتى ذلك الوقت يشعرون فيها بالأمان؟

إن الحرب مملكة تصبح فيها الوحشية مسألة دنيوية، ولكن تدمير الأشجار يمكن أن يصبح صادمًا مثل الهجمات التى تشن على الحياة البشرية تقريبًا. وعندما يتم تجريف أشجار الزيتون القديمة بالبلدوزرات، مما يسبب خسارة صفوف نبيلة من الأشجار التى حملت الثمار لأجيال وكان يجب أن تستمر لكى تفعل ذلك لأجيال قادمة، فإن القلب الفلسطينى يمكن أن يصاب فى الصميم. وعندما يتم بالمثل رفض المطالب القديمة للعائلات العريقة بالأرض والمساكن مع موجة مذكرات نزع الملكية، فإن الضربة تذهب إلى أعمق مما تتضمنه عبارة «الملكية العقارية». إن ما هو فى موضع الاختبار بالنسبة للرجال والنساء الذين يتم إنكار تاريخهم والذين تم انتزاع مكانهم فى التاريخ لا يقل عن الوجود نفسه. وبالإضافة إلى كل ما عدا ذلك فإن هذا يدفع بسرعة حياة الناس إلى حافة اللامعنى.

يرفض معظم الفلسطينيين أن يعرفوا أنفسهم بالعداوة. وهم يرفضون إغراء تشكيل الوطنية من خلال الانتقام فحسب. وهذا هو معنى أن يجلس قادتهم على مائدة المفاوضات من أجل السلام غدًا. فهل سيتم فهمهم؟ هل سيتم الاعتراف بتجربتهم؟

يجب أن يحدث الكثير، بعبارة أخرى، قبل أن يتحول الفلسطينيون إلى وفد واشنطن الذى تأخر كثيرًا ويقولون: «أنتم تعرفون الآن ما يكون عليه ذلك الشعور».

***

الحرب الألفية

١٧ يونيو ٢٠٠٣م

الآن بدأ الأمريكيون يواجهون حقيقة أنه، فى غياب أسلحة الدمار الشامل العراقية، كان السبب المعلن للحرب سببًا زائفًا، وثمة سؤال جديد يطرح نفسه: لماذا، حقًا، ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب؟ ولماذا، حتى الآن، يشعر مواطنو الولايات المتحدة بهذه الدرجة القليلة من وخز الضمير لأنهم شنوا حربًا دونما مبرر؟ وهناك سيناتور أمريكى بارز ومرشح للرئاسة يمكن أن يطرح أسئلة صعبة حول تزييف إدارة بوش لمعلومات المخابرات عن أسلحة الدمار الشامل، حتى وهو ما يزال يؤكد موافقته على الحرب التى يفترض أن هذه المعلومات جعلتها ضرورة. ما الذى يجرى هنا؟

إن أشكالاً كثيرة من السلوك الإنسانى يمكن أن تتضمن أغراضًا معلنة وأغراضًا خفية. وعندما تكون الأغراض المعلنة مفضوحة، يتحول الانتباه بالضرورة إلى الأغراض الخفية. ذلك أن الدوافع الخفية للحرب معروفة جيدًا وكثيرا ما جرت مناقشتها - من هوميروس إلى فرويد. فالحرب تمنح البشر المبعدين إحساسًا بالالتصاق. والحرب بتقسيم الواقع إلى مملكتين للشر وللخير، تشفى من الإحساس اللاواعى بالذنب وتقوى مشاعر الفضيلة. وتقدم الحرب شفاء من أعباء الوجود الأرضى كافة. وتبرر الحرب خلق الضحايا الذى يقدم نفيهم من الحياة إثارة النصر، والذى يتم تجربته باعتباره فاتحة إلى التفوق. وهكذا.

ونحن الأمريكيين فيما بعد عصر فرويد عادة ما نَعُدّ أنفسنا بعيدين عن مثل هذه النبضات البدائية، وهذا هو السبب فى أن الولايات المتحدة تفخر بنفسها وهى تذهب إلى الحرب فقط من أجل أسباب جيدة وراسخة. ولكن هذا ما يجعل الجدل حول أسلحة الدمار الشامل المختفية يخفت ويصمت. وإذا لم يعد ممكنا تبرير الحرب باعتبارها فعلا أصيلاً «للوقاية»، فلماذا لا يزال الأمريكيون يشعرون بأن كل شىء على

ما يرام بشأنها؟ ولا يحتاج الأمر إلى محلل نفسى لكى نرى ـ شيئًا قويًا يتحرك تحت سطح النفسية الأمريكية . إذ إن هناك شيئين يقترحان أنفسهما . نحن تائهون فى الزمان . ونحن تائهون فى المكان . والحرب تساعدنا على تحديد وضعنا فى كل منهما .

تذكر القلق المهيمن الذى راقبنا به الساعة وهى تقترب من اللحظة الأسطورية لشهر يناير سنة ٢٠٠٠م . فقد توقعنا كوارث غير معروفة ، حتى وإن كنا قد ربطناها بالمشكلة «العقلانية» المعروفة باسم Y2K ، وهى مشكلة خلل الكمبيوتر التى هددت كل شىء من شبكات القوى إلى المراقبة الجوية . وفى الإدراك المتأخر ، يمكننا أن نعترف بأننا كنا فى قبضة ذعر ألفى كان جديراً بأجدادنا منذ ألف سنة مضت ، على الرغم من عقلانيتنا . ويكمن الخوف من نهاية العالم فى توقع أن نهاية العالم قد اقتربت ، وأن كل مخلوق يعى مرور الزمن معرض له . إنه أمر بشرى أن تكون خائفًا جدًا من نهاية الزمان ، وأن هذا المفهوم الغامض قد أثر فى العقل الباطن الأمريكى مع مشكلة خلل الكمبيوتر Y2K . كانت الكارثة الألفية تهديداً ظننا أننا نجونا منه ـ حتى الحادى عشر من سبتمبر . وكما كان ذلك حقيقيًا بالنسبة للعالم المسيحى فى الألفية السابقة ، فإن استجابتنا اللحظية ، إن لم تكن اللاواعية ، قد تمثلت فى شن الحروب الصليبية . إن الحملات الصليبية الألفية تهدف إلى القضاء على الفوضى ، التى كان البشر فى أزمنة أخرى يجدون الوسائل للعيش معها .

وكذلك المكان . فمن المعروف جيداً أن رأسمالية السوق الحرة الأمريكية وتكنولوچيا المعلومات هى مركز عملية عولمة جديدة ، بيد أن هذه التجديدات نسخت التعريفات التقليدية للمكان . فاليوم مع الوصول اللحظى إلى التجربة فى كل مكان متاحًا ليس فقط عن طريق الكمبيوتر وإنما من خلايا تليفون الخلية ، لم تعد الحدود بين هنا وهناك واضحة . هذا التطور تطور كبير وضخم ؛ لأن هذه الحدود كانت بمثابة العلامة الأولى فى الوعى الإنسانى ، والمصدر الأولى للهوية والمعنى . إذ إن الأشخاص يصبحون ما هم عليه ـ أعضاء فى عائلات ، قبيلة شعب ، أمة ـ بالخطو خارج الإقليم واكتشاف من يشاركهم فيه . ولكن ما الإقليم فى عصر التليفزيون؟ الهجرة ، ووسائل الإعلام الشاملة ، عالم ماك ، والمول ـ نفس بناءات الحياة المعاصرة هى مصادر عدم تحديد المكان . إن البشر عبر العالم يتساءلون فى دهشة : أين أنا؟ ولكن الأمريكيين ، الذين يظنون أن لهم حقًا طبيعيًا فى السيادة ، يجدون إجابة بادعاء ملكيتهم للعالم نفسه . إن

هدف حروبنا التى تُشن فى زمن غير مؤكد، هو إعادة تحديد مكان غير مؤكد. أمريكا هى العالم. وكل مكان هو مكاننا.

لا يهم، من ثم، ما إذا كانت أسلحة الدمار الشامل لدى صدام حسين مصوبة إلى أعلى. ولا يهم ما إذا كانت تبريرات إدارة بوش قبل الحرب ناتجة عن خيبة المخابرات أو كانت كذبا صريحًا. ولا يهم ما إذا كانت حروب ما بعد ٩ ـ ١١ ضد أفغانستان والعراق لها علاقة بالأهداف التى طرحت. ومن الواضح أنه لا يهم، حتى لو كانت هناك حروب أمريكية يتم تبريرها بشكل أكثر التباسًا فى الفترة القادمة.

ولكن ما يهم هو أننا هكذا شعب فى قبضة النبضات الألفية والمرتبطة بنهاية العالم، التى نصمم على إنكارها. وكوننا على هذا القدر من البدائية هو الذى يجعلنا بشراً. وكوننا على هذا القدر من العمى هو الذى يجعلنا خطرين.

* * *

أن تحب أمريكا

١ يوليو ٢٠٠٣م

كانت نقطة الألعاب النارية عندما كنت شابًا. ففى تلك الأيام، كان كل فناء خلفى يشهد احتفالاً بالرابع من يوليو، وكان أبوك، مثل سائر الآباء، يرأس عملية إيقاد الشموع الرومانية، والأقماع البركانية وصواريخ الألعاب النارية. وكان يشرف على توزيع الشرارات التى تكتب أنت وأخوتك أسماءكم بها فى الهواء. وكانت كل تلك النيران تعطى إحساسًا بالخطر، ولكنها لم تكن تخيفك لأن أباك كان هو المسئول.

كانت الألعاب النارية قاصرة على الرابع من يوليو، وكنت تعرف معناها: أمريكا أمة عظيمة. لقد كان اللون فى السماء احتفالاً بهيجًا بهذه العظمة. وقد نَمَوْتَ مع حب دافق لبلادك، وهو حب لم تشعر به بهذا القدر من الامتلاء أكثر من يوم ميلادها. فى تلك السنوات كانت عظمة أمريكا قد تجلت لتوها فى الانتصار على الفاشية، وحتى وأنت طفل استوعبت المخاطر القاتلة للصراع مع چوزيف ستالين، ولم تكن على خطإ. ولكن الخطوة صوب البلوغ قد انطلقت بمعرفة مزعجة. وإذ كبرت وأنت تلعب لعبة «رعاة البقر والهنود»، فقد راودك السؤال يوما: أين كل أولئك الهنود الآن؟ ولماذا

يكون كل الفتيان الملونون فى تلك المدرسة الأخرى؟ ثم يخطر على بالك وأنت جاثم تحت معقدك مختبئا فى لعبة «البطة والغطاء» أن قنبلة ستالين النووية وقنبلة أمريكا النووية هما الشىء نفسه.

كان عراكك الحقيقى الأول مع أبيك حول مارتن لوثر كنج چونيور. فقد بدأت تصرُّ على أن «دكتور كنج يقول إذا كانت أمريكا تريد أن تكون أمة عظيمة»، ولكن أباك يقاطعك بقوله: «إن أمريكا أمة عظيمة بالفعل». والاقتناع الغاضب الذى قال هذا به جعلك تفكر فى أنك أنت وهو لم تعودا تؤمنان بالشىء نفسه، ولكنك تفهم الآن أن كلاً منكما كان على صواب.

وأنت تحتفل بعظمة أمريكا هذا الأسبوع بالامتنان والفخر، ولكن أيضا بفهم ناضج؛ لأن العظمة لا تحول دون وقوع الإخفاقات الفادحة، كما أنها لا تتكون من الكمال الثابت الذى يعلو فوق النقد. فمنذ تلك الليالى فى منتصف الصيف بالشموع الرومانية وقاذفات الشرارة فى الفناء الخلفى، أعادت بلادك تعريف نفسها مرة بعد مرة: «فالناس الملونون» لم يعودوا مجرد ناس ملونين، وتماما مثلما كانت افتراضات السيادة العنصرية ـ السيادة التى يمارسها الأوروپيون البيض ـ كانت مركزية بالنسبة لتأسيس أوروپا، فإن تحويل هذه الافتراضات أنجز شيئًا لا يقل عن إعادة اختراع أمريكا. وهذا هو السبب فى أنك كنت على صواب فى أن ترى مارتن لوثر كنج چونيور بوصفه المدافع عن التغيرات التى تتخطى أچندة الحقوق المدنية الضيقة بمسافة كبيرة. ذلك أن المواقف المتنامية صوب النوع والعرقية: الاستعداد لمواجهة الأسرار المظلمة فى ماضى الأمة والتكفير عنها؛ والتسامح الحقيقى تجاه الطرق الكثيرة لأن تكون مختلفًا؛ الاعتراف بأن العنف وباء أمريكى خاص، حتى لو ظل الأمريكيون غير متفقين على مغزاه ومضامينه فى الوطن وفى الخارج ـ كل هذا علامة على العقل الوطنى بطرق لم تكن تخطر على البال منذ وقت ليس بعيداً.

وما يجعلها حقيقة أن تقول، مثلما قال أبوك، إن أمريكا بالفعل أمة عظيمة، هو أن أمريكا كانت تحمل فى داخلها مبادئ النقد الذاتى زمنًا طويلاً. لقد كان بوسع مارتن لوثر كنج چونيور. أن يطالب بالتغيير الجذرى من داخل السياق الأمريكى، لا ضده. وباللجوء إلى أنبل فكرة لدى أمريكا عن نفسها بوصفها طريقًا لعظمة جديدة، كان كنج

يبنى فوق العظمة الموجودة فعلاً. وهكذا يتم تشريف الأمريكيين المؤسسين لا لأنهم أسسوا المجتمع العادل، و لكن لأنهم أقاموا أبنية العقل والاتحاد التى يمكن من داخلها السعى بصفة دائمة نحو المجتمع العادل. وقد رأيت هذا يحدث على مدى حياتك، وكذلك فعل أبوك.

ليس جديداً أن أمريكا بحاجة إلى النقد اليوم. الاستسلام إلى الإغراء القديم بنزعة الانتصار والتفوق، وثقتها فى القوة العنيفة، وتمجيد الامتلاك لدرجة التخلى عن الذين لا يمكلون، وحصر الأمن القومى فى الوطنية الضيقة، والتعامل مع النقد بوصفه عدم ولاء. إن الإظهار الأمريكى المخصوص لحب البلاد يتكون من الاستعداد للإبقاء على الأمة فى مستواها الأعلى. إن أمريكا تحديداً تقصر باستمرار عن أن تكون هى نفسها.

هذه التجديدات للرابع من يوليو ذات مغزى ملح اليوم. فقد دخل الصراع العراقى مرحلة حر ب العصابات، ويقتل الشباب بشكل مطرد وثابت، بمن فيهم الأمريكيون. وأصوات الاحتجاج من حول العالم سوف تعلو أكثر بينما يسوء هذا النزيف، ولكن النقد الذى يمكن فعلاً أن ينقذ الأمريكيين والعراقيين من هذه الكارثة يجب أن يأتى من الداخل. إن قدرة أمتك على مواجهة مثل هذا الإخفاق، باسم أفضل ما فيها، وإنهائه هى السبب فى أن أباك علمك أن تحب أمريكا. إن القدرة على نقد الذات والتغيير هى ما تحتفل به هذا الأسبوع.

***

(١٣)

حرب خاسرة

بمجرد أن أعلن چورچ دبليو بوش النصر فى العراق، تجلى المدى الكامل للخسارة الأمريكية ليبدأ الإعلان عن نفسه. فقد أخذ المشروع الكامل لما بعد الحادى عشر من سبتمبر يتداعى. ذلك أن أفغانستان، باستثناء مقاطعة ضيقة تتمركز حول كابول العاصمة، قد تدهورت إلى دولة يسودها أمراء الحرب والصراع القبلى، والإجرام المنفلت.

وقد صارت حركة طالبان التى أعيد إحياؤها، وتجارة الهيروين التى بعثت من جديد، والأزمة الإنسانية بين الأفغان أهم سمات الموقف الجديد. وإذا كانت القاعدة قد انتشرت من قواعدها هناك، فإنها لم تختف بأى حال من الأحوال. والهزيمة الأمريكية المتجسدة فى بقاء أسامة بن لادن طليقا كانت أكبر من مجرد هزيمة رمزية. وفى العالم العربى - والواقع أنه فى كل دار الإسلام - كان وضع أسامة بن لادن يتحول من وغد هامشى إلى صلاح الدين عصرى، وهو البطل الذى هزم الصليبيين. لقد رفعت حرب بوش على الإرهاب بن لادن إلى مكانة أسطورية حينما عرفته بأنه خصم عسكرى بدلاً من مجرم سادى. لقد خسرنا «الحرب» على الإرهاب يوم أن أعلنها بوش.

ومما يستلفت الانتباه أن بوش قد عوَّل على أن يفعل شيئًا مشابهًا مع صدام حسين، قبل القبض عليه. فعلى مدى ثمانية شهور فى حرب الخيال - ميدان المعركة الحقيقى - كان بقاء صدام حسين يكذب كل مزاعم النصر الأمريكى. وحرب العصابات الغوغائية التى بدأ أنصاره يشنونها مباشرة بعد أن انتهت «حربنا» اعتمدت، مثلاً، على ذخيرة مخبأة فى أماكن جيدة وآمنة، كشف وجودها عن استعداد أذكى كثيراً من أى شىء فعله البنتاجون أو فكر فيه لعراق ما بعد الحرب. والواقع أن فضيحتنا الكبرى فى الاحتلال الأمريكى كانت فى مدى قصور تجهيزاته، وتدريبات وحماية جنود أمريكا الشباب لأرض المعركة التى واجهوها، سياسيًا وعسكريًا أيضًا.

فكل حرب، هى أولا، حرب مخابرات، وعلى كل جبهة من جبهات ذلك الصراع خسرت أمريكا. وهجمات الحادى عشر من سبتمبر نفسها كشفت عن خيبة مخابرات أمريكا الخارجية والداخلية. ثم أعقب ذلك الإخفاقات فى فهم إمكانات طالبان، وتوقع موارد القاعدة فى پاكستان، وتقييم قصد صدام حسين الفعلى وموارده، وبصفة خاصة تقديم تحليل ذى معنى لعدم امتلاكه أسلحة الدمار الشامل. إن بوش يخوض حربه على كل جبهة وهو أعمى! فلا عجب أنها حرب خاسرة.

***

تخليص العالم من الشر

٨ يوليو ٢٠٠٣م

فى رحاب الروعة القوطية بالكاتدرائية الوطنية، وفى تلك الصلاة التى أقيمت فى ذكرى الصدمة فى سبتمبر ٢٠٠١م، أعلن چورچ دبليو بوش أكثر إعلاناته إثارة وشؤمًا فى فترة رئاسته. فقد قال: «على مدى ثلاثة أيام فقط من هذه الأحداث لم يكن لدى الأمريكيين بعد مسافة التاريخ. ولكن مسئوليتنا تجاه التاريخ واضحة بالفعل: هى الرد على هذه الهجمات ونخلص العالم من الشر».

وقعت العبارة على آذان معظم الأمريكيين، ربما، بوصفها مجرد بلاغة من منبر الوعظ، ولكن بينما تطول «مسافة التاريخ»، تظهر الأحداث أنه فى تلك الكلمات القليلة أعاد الرئيس تحديد سبب وجوده وسبب وجود الأمة ـ بأنه «تخليص العالم من الشر» ولا شيء أقل من ذلك. والمبادرات غير المسبوقة التى اتخذتها واشنطن فى العامين الأخيرين لا يمكن فهمها إلا فى سياق هذا الغرض. ويرى المرء الآن أن الرئيس بوش كان يعنى بالضبط ما قاله. شيء جديد تمامًا، بالنسبة لأمريكا على الأقل، يدفع حكومتها إلى العمل. إن أكبر قوة شهدتها الأرض معبأة الآن ضد أقدم سر فى الدنيا. وما أثبت البشر أنهم عاجزون عن فعله من قبل، أخذه چورچ دبليو بوش على عاتقه الشخصى، بهدف إنجازه فى دورة انتخابية واحدة أو دورتين على الأكثر.

والأمر الذى ربما لا يعرفه الرئيس أن أسوأ تجليات الشر كانت بالضبط هى رد فعل

الضربات للتخلص منه . وإذا كان بوسع المرء أن يشير إلى تشخيص الشر ، فإن حيلة الشيطان العظمى تكمن فى انقلاب الطاقة الوحشية لمثل هذا التطهر على نفسها . وعبر مسافة التاريخ ، كان أنبل طموح يؤدى دائمًا إلى أسوإ الأعمال . وهذا راجع إلى أن يقين النبل يتجاوز وخز الضمير الأخلاقى الذى يلازم المشروعات الأقل سموًا . وسجل هذا التناقض المميت مكتوب فى تراث أدبى كامل ، على أيدى كتّاب من سوفوكليس إلى ديستوفيسكى إلى أورسولا لوجين . والذين يطرح كل منهم السؤال الدائم : ما المسموح بفعله باسم «تخليص العالم من الشر»؟

هل الكذب مسموح به؟ التعذيب؟ قتل الأطفال؟ أو عسكرة المجتمع المدنى؟ شن الحرب لأسباب غير واضحة؟ ولكن الحرب لا تكون ملتبسة أبدًا عند شنها . إن الاعتراف بالتعقيد ـ الأخلاقى والعسكرى كذلك ـ لا يأتى إلا مع «مسافة التاريخ» ، وهذا هو المنظور الذى بدأ يفرض نفسه على الضمير الأمريكى الآن . وإذ انطلقت الولايات المتحدة لكى تخلص العالم من الشر ، فى أفغانستان أولاً ، ثم فى العراق ، فإنها صارت ، طوعًا أو كرها ، أداة من أدوات الشر . فالكذب (أسلحة الدمار الشامل) . والتعذيب (إذا ما كان فقط على أيدى وكلاء الولايات المتحدة) ، قتل الأطفال (عرضا ولكن حتمًا) ، امتهان الوطنية (رقصة التناطح المبتذلة الأسبوع الماضى) ، فرض الفوضى (وتسميتها حرية) ، تدمير التحالفات (العراق أولاً ثم فرنسا) ، دعوة الأمم الأخرى للتصرف على نفس النحو (وداعا الشيشان) ، التصعيد العنيد (أحضروهم هنا) ، مجمع الأعداء الخرافيين الذى صنعته واشنطن نفسها (أسامة أولاً ، والآن صدام) تحويل الشباب الأمريكى العادى (إلى أبطال موتى) . كيف يمكن لهذا كله ، أو أى منه ، أن «يخلص العالم من الشر»؟

وهو ما يعود بنا إلى تلك الكاتدرائية القوطية لنطرح سؤالا : ما الشر على أى حال؟ هل هو فقط دافع الطغاة؟ دافع الأعداء وحدهم؟ أم أنه مرتبط بالالتزام الشخصى الذى تعلق عليه أمريكا أيضا رايتها؟ هل الشر هو الشىء الذى ربما يدفع البشر دائمًا إلى الاعتقاد بأنهم أنفسهم لم يمسهم الشر؟ إن النضج الأخلاقى ، الذى يلين عبر مسافة التاريخ ، يبدأ بالاعتراف بأن الشر ، مهما كان مصدره الأولى ، يقيم مثل فيروس فى مكمنه ، فى النفس الإنسانية . ليس هناك تخليص للعالم من الشر بسبب الحقيقة البسيطة القائلة بأنه لا تخليص للنفس من الشر ، بسبب الخجل من التاريخ .

ولكن هناك مشكلة الرئيس بوش. وهى ليست عدم النضج الأخلاقى للنصوص التى يذيعها. ومثل عبارته الساذجة فى الكاتدرائية فى ١٤ سبتمبر ٢٠٠١م، التى كتبها له شخص آخر. وعندما يتحدث الرئيس، دون الاعتماد على نص مكتوب، من مركزه الأخلاقى الخاص، فإن الخواء اللامتناهى هو الذى يظهر جليّا. ولكى يرد على العنف الوحشى الذى يقسم العراق «بعد الحرب» بعبارة «أحضروهم هنا» (كما فعل فى الأسبوع الماضى) يعنى أن يظهر غيابًا للخيال يصدمنا فى رجل له مثل هذه السلطة. لقد أظهر قصوراً فى القدرة على التمييز سواء مع العراقيين الغاضبين الذين يجب أن يرتقوا إلى مثل هذه الذرى، أو مع الشباب الذين يجب أن يجيبوا عن ذلك. وحتى فى علاقته مع جنوده، فإنه لا يوجد شىء فى داخل هذا الرجل سوى الوضاعة العميقة.

لا يوجد بشر لديه أدنى معرفة بذاته يمكن أن يتحدث عن الشر كما يفعل، ولكن لا توجد معرفة بالذات دون وجود الذات. وحتى هذه «المسافة القصيرة من التاريخ» تظهر أن چورچ دبليو بوش يكون بهذا المعنى، هو الرئيس الذى لا ذات له، وهذه ليست مجاملة. إنها تحذير.

* * *

انعدام المخابرات

١٥ يوليو ٢٠٠٣م

هكذا قدمت جماعة المخابرات معلومات خاطئة لصناع السياسة، الذين استخدموها عندئذ لتسويغ القرارات الكارثية. متى سمعت هذه القصة من قبل؟

* هل كانت فى سنة ١٩٤٤م عندما تم شن حرب جوية من الحلفاء على المدن على أساس تقديرات المخابرات البريطانية (التى عارضها بعض الأمريكيين) بأن القصف سوف يدمر معنويات العدو؟

* أم كان ذلك فى سنة ١٩٤٥م، عندما قدم مشروع مخابرات مانهاتن، الذى كان يشرف عليه البريچادير چنرال ليسلى جروڤز، تقديرات (عارضها العلماء) بأن الاتحاد السوڤييتى لن يمتلك القنبلة النووية قبل عشرين سنة؟

* أم كان ذلك فى الخمسينيات من القرن العشرين عندما قامت المخابرات الأمريكية بالتأكيد تمامًا على السمة الأحادية للشيوعية العالمية لدرجة أنها أخطأت الملامح الوطنية المعادية لموسكو فى يوغوسلافيا والصين؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٠م عندما قامت مخابرات القوات الجوية الأمريكية، التى رأت أن ثمة «فجوة فى القاذفات»، ثم اكتشفت «فجوة صواريخ»، مما أشعل تصعيدات رئيسية فى سباق التسلح مع الاتحاد السوڤييتى؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٨م عندما بالغت المخابرات العسكرية، التى استحوذت عليها «أعداد الجثث»، فى تقدم الحرب (بإحصاء النساء والمسنين على أنهم جنود) لدرجة أن التيت فاجئوا واشنطن بهجومهم مفاجأة تامة؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٩م عندما اعتمد ريتشارد نيكسون، لكى يسوغ اقتراحه بنظام الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية، على تقارير المخابرات (التى عارضها مدير وكالة مخابرات وزارة الدفاع) بأن الاتحاد السوڤييتى كان يعد العدة لشن الضربة الأولى؟

* أم كان ذلك فى السبعينيات عندما قامت مخابرات الولايات المتحدة، وهى تساند شاه إيران، باستبعاد تسجيلات خطب أحد الملالى المنفيين الذى يسمى الخومينى على اعتبار أنها غير ذات علاقة؟

* أم كان ذلك فى ثمانينيات القرن العشرين، عندما فات المخابرات الأمريكية، وهى تؤكد على «إمبراطورية الشر»، كلية، الانهيار الداخلى فى الاقتصاد السوڤييتى والمغزى التاريخى للحركات الديمقراطية غير العنيفة أيضًا؟

إن إخفاق المخابرات، الذى يؤدى بواشنطن إلى ارتكاب أخطاء سياسية تهدد العالم، ليس هو الاستثناء. وإنما هو القاعدة. ذلك أن المحللين محكومون بشرط التأكيد على سيناريوهات الحالة الأسوأ. لاحظ ما تتضمنه كل حالة: نظام معلومات فى خدمة الرغبات الموجودة قبلاً والافتراضات المسبقة لدى أولئك الذين فى السلطة. وتقديرات المخابرات التى تتحرك إلى أعلى فى تسلسل القيادة لها طريقة فى تأكيد الافتراضات المسبقة عند القمة. كان ترومان يريد أن يعتقد فى احتكار نووى طويل

المدى لدرجة أنه يمكن أن يوبخ موسكو ـ وأكد له جروڤز أن الأمر سيكون كذلك. وكان نيكسون يريد تسويغا لمشروع اعتراض الصواريخ الباليستية، ووفرته له القراءة المنحرفة لعمليات نشر الصواريخ السوڤييتية، وهكذا. وليس معنى هذا القول أن موظفي المخابرات «يكذبون»، ولكن معناه أنه عند كل مستوى من جمع المعلومات وتحليلها ـ من «عد الجثث» في الميدان من خلال عدة مراحل وسيطة من التقارير والمراجعة، إلى التقرير القومي للمخابرات الذى يقدم للرئيس ـ يتم حذف التناقضات ومواطن الغموض، ربما دونما وعى، لكى تلبى توقعات الرؤساء.

ففي الصور التى التقطتها الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠م ظهرت آثار كثيرة فى الأراضى السوڤييتية الشاسعة، وهى مسلات جرانيتية منصوبة لتكريم قتلى الجيش الأحمر فى الحروب. وأول تحليل للصور كان لا بد أن يظهر هذه البنايات على أنها شواهد قبور «بشكل شبه مؤكد»، والتحليل الثانى «ربما تكون شواهد قبور، ولكن هناك فرصة صغيرة لأن تكون صواريخ»، أما الثالث «يمكن تمامًا أن تكون صواريخ»، والرابع «من المحتمل أن تكون صواريخ، على الرغم من أنها قد تكون شواهد قبور». وفى الوقت الذى كان فيه چون كنيدى يحذر من فجوة الصواريخ، لا بد أنه كان يعتمد على تقرير رأى «دليلاً قويًا» على نشر الصواريخ عبر الاتحاد السوڤييتى. وليست مصادفة، أن تلك التقارير قد عززت مطالب تعزيز ميزانية القوات الجوية، وكانت وقودًا لانتقادات كنيدى للإدارة الجمهورية.

ولا يحتاج المرء إلى أن يصدق أن چورچ دبليو بوش «قد كذب» بشأن أسلحة الدمار الشامل فى العراق. فحسب التقاليد، اعتمد ببساطة على تقارير أعطته ما كان يريده ـ تقارير قد قامت بتصفية التحذيرات، والتناقضات، ونقاط الغموض التى لا تتواءم مع غرضه الثابت. وكان چورج تينيت مدير الـ CIA قد أشار إلى مثل هذه التصفية حديثًا على أنها المذنب.

وما لم يظن المرء أن هذه «التصفية» أمر شنيع، فإنه ينبغى أيضًا تقدير أنها بالضبط ما استخدمته الأغلبية الساحقة من الأمريكيين، والسياسيين «وصناع الرأى» فى اندفاعها الحماسى إلى الحرب فى الخريف الأخير والشتاء الأخير. وكثير من الديمقراطيين

والعارفين الذين يدينون الآن «خداع» المخابرات يفعلون الشيء نفسه بالضبط لدعم حرب كانوا أجبن من أن يعارضوها - متجاهلين الدليل الذى لوحظ كثيراً (بما يكفى لمساندة معارضة الأمم المتحدة) والذى يتناقض مع المزاعم المضحكة التى تزعمها إدارة بوش.

ولا يشارك كل موظفى المخابرات بإرادتهم فى هذا الفساد، سواء اليوم أو فى الماضى. وكل من الأمثلة التى أشرنا إليها فى السطور السابقة تتضمن موظفين اعترضوا على الاتفاق الذى ساد من القمة إلى أسفل، مما أدى إلى هلاكهم أحيانا. وقد حدث أن عرفت بحالة من هذا القبيل بشكل شخصى، وهذا هو السبب فى أننى أجد هذا النموذج من خداع النفس الأمريكى مؤلمًا إلى هذا الحد. ومدير مخابرات وزارة الدفاع الذى تحدى إدارة نيكسون سنة ١٩٦٩م بمناقضة زعمها حول «الضربة الأولى» للسوڤييت ومقاصدها كان أبا، الليفتانت چنرال چوزيف كارول. وقد كلفه حديثه عن هذه الحقيقة مستقبله المهنى.

***

هل كانت الحرب ضرورية؟

٢٢ يوليو ٢٠٠٣م

لماذا يضرب الانتحار الواضح لديڤيد كيلى على هذا الوتر؟ لقد وجد خبير الأسلحة البريطانى نفسه وسط جدل حول تهويل بوش وبلير من تهديد صدام. فثمة تقارير مجهولة المصدر أذاعتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وتحقيق برلمانى جرىء، وتأكيدات التفتيش على الأسلحة، ومصداقية الحكومة محل خطر، وسلسلة الخداع - كل هذا سويا كان من الممكن أن يكون ثقله أكبر من قدرة رجل واحد. وعلى الرغم من أن الجوانب الشيطانية الخاصة بأى حالة انتحار تبقى غامضة إلى الأبد، فإنه يبدو أن كون الدكتور كيلى معلقًا فى هذا النزاع قد أشعل فى داخله الكرب الذى لم يستطع أن يتحمله. وذكر تقرير «أنه أخبر زوجته أنه سوف يتمشى، وقال فلاح إن كيلى ابتسم فى أثناء مروره». وبعدها ببضع ساعات، وجد بالقرب من إحدى الغابات، وقد قطع معصمه الأيسر.

لقد كشف دكتور كيلى عن حقيقة أن النزاع حول تلاعب المخابرات لتبرير «حرب وقائية» هو مسألة حياة أو موت. ولم يعد هذا مجرد سؤال عن التحركات السياسية، أو مناقشة أخرى بين الليبراليين والمحافظين. وعندما أخبر رئيس الوزراء تونى بلير بموت كيلى، أسماه «مأساة مرعبة للغاية». بيد أن العبء الذى كسر ذلك الرجل، كان فى جوهره، هو وزن السؤال المرعب للغاية هل كانت الحرب البريطانية ـ الأمريكية ضد العراق ضرورية؟

وكل شخص قتل فى هذه الحرب ـ بما فى ذلك بالتأكيد الجنود الأمريكيون الشباب الذين يموتون إلى اليوم ـ يمثل «مأساة مرعبة للغابة» فى برنامج The News Hour with Jim Lehner، ثمة ملف شرفى يتم حفظه، ومعه صور القتلى الأمريكيين تعرض فى صمت. لقد صار طقسًا محبطا مثيرًا للمشاعر، ولكن فى ذلك الصمت يسأل المرء أيضًا وماذا عن القتلى العراقيين؟

لقد كشف قائد قوات التحالف الجوية، الليفتنانت جنرال ت. ميخائيل موسلى فى نهاية هذا الأسبوع أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد كان لا بد أن يوقع شخصيًا على أى ضربة جوية «يُظن أن من المحتمل أن تسفر عن مصرع أكثر من ثلاثين مدنيا»، حسبما كتبت صحيفة «نيويورك تايمز». « وقد تم اقتراح أكثر من خمسين ضربة جوية من هذا النوع، وتمت الموافقة عليها كلها». وكشف الجنرال موسلى أيضًا عن أن الهجوم الذى قامت به طائرات الشبح والذى يحتفى به كثيرًا على مخبإ صدام حسين فى المراحل المبكرة من الحرب كان إخفاقًا مزدوجًا.

إذ لم يكن هناك صدام حسين فقط، وإنما لم يكن هناك مخبأ. نأسف لهذا.

ويرى المرء أخلاقيات الحرب العادلة التقليدية فعالة: يمكن للحرب الضرورية أن تنطوى على «الدمار العرضى» والقتلى المدنيين ـ وهو أمر مأساوى ولكنه مقبول. ولكن هل كانت الحرب ضرورية؟ إن هذا السؤال يحدد نقاط النزاع حول الأساليب التى استخدمها چورچ بوش وتونى بلير فى إساءة تقديم صورة صدام حسين بالأسلحة النووية والبيولوچية والكيميائية. وعندما هاجمت طائرات الحلفاء عن علم وبشكل متكرر أهدافًا كانت ستؤدى لقتل أعداد كبيرة من المدنيين، لم يكن هناك ما يمكن أن يبرر مثل هذه المذابح سوى الجهد العاجل لمنع هجوم وشيك بأسلحة الدمار الشامل من

جانب صدام حسين. ولكن ظهر الآن أن العرض المنطقى للضرورة كان زائفًا. وقد اتضح أن «الحرب الوقائية»، لم تمنع شيئًا.

فى مؤتمر صحفى فى اليابان فى اليوم التالى لاكتشاف جثة ديڤيد كيلى، سُئل تونى بلير «هل يداك ملوثتان بالدماء يا رئيس الوزراء؟». واأسفاه إن هناك محيطًا من الدماء على أيدى تونى بلير وچورچ بوش. وسواء ظهر أنهما «يكذبان» أم لا، فإنهما استبعدا النقاط الغامضة ونقاط عدم اليقين التى اتسمت بها تقديرات المخابرات قبل الحرب حول التهديد الذى يمثله صدام حسين. ومع هذا، حسبما ناقشت الأسبوع الماضى، هناك تراث طويل فى تلاعب الرؤساء بتقديرات المخابرات لخدمة أغراضهم المقررة سلفًا. وعندما تكون المخابرات التى يثور حولها النزاع هى أساس الحرب، فإن قراءة الزعيم لتقارير هذه المخابرات ينبغى أن تكون قراءة حقيقية، وإلا، فإن مناقشة الحرب العادلة من حيث الضرورة تفشل.

ولا عجب فى أن النزاع لم يمت. إذ إن المسألة مهمة إلى درجة كبيرة. ولا عجب فى أن الأصوات الانتخابية تبتعد عن بوش. فلا يحب مواطنو الولايات المتحدة أن يروا فى أنفسهم قتلة متوحشين. ولا عجب فى أن الجنود الأمريكيين فى العراق يعبرون عن شكوكهم صراحة. إن أول متطلبات الديمقراطية من النظام العسكرى هو إيمان الجيش بالضرورة الأخلاقية لمهامه. ولا عجب فى أن ضغوط النزاع قد أدت إلى أن يقتل رجل واحد نفسه. إن المسألة مميتة: هل كانت حرب بوش «الوقائية» جديدة الطراز مجرد حرب أخرى من الحروب العدوانية؟

وسئل تونى بلير عما إذا كان سيستقيل، وأحد الديمقراطيين البارزين على الأقل رشق الرئيس بتعبير «اتهام بالتقصير». بيد أن العواقب السياسية لهذا الجدل بدأت تحتل المكان الثانى بعد العواقب الأخلاقية، بل وحتى القانونية. إن الأخلاق التقليدية تعلن أن الحرب العدوانية هى فى حقيقتها حرب ظالمة، وأن موت كل مدنى نتج عن مثل هذه الحرب لهو جريمة قتل. أكثر من خمسين غارة جوية، تسببت كل منها فى موت أكثر من ثلاثين عراقيًا، وكل منها بموافقة رامسفيلد. إنها مآسى مرعبة للغاية، كل منها مأساة مرعبة. وكذلك ـ كما يتضح أكثر اليوم ـ كل منها جريمة حرب.

***

٥ أغسطس ٢٠٠٣م

«على الرغم من أن الحرب لم تتطلب منى جسديا أى طلبات مباشرة، فإنها باستمرارها قد أوقفت نشاطى الفنى تمامًا؛ لأنها أجبرتنى على إعادة تقييم معذبة لافتراضاتى الأساسية». تحدث بهذه الكلمات توماس مان فى خطابه بمناسبة تسلم جائزة نوبل سنة ١٩٢٩م، وهو ما يعكس تمزقا نفسيًا واسعًا وقع على العقل الأوروبى بسبب الحرب العالمية الأولى. ولكن كما أن الحرب يمكن أن تؤدى إلى «إعادة تقييم الافتراضات الأساسية»، فإنها يمكن أن تؤدى إلى العكس، وتعزز الافتراضات إلى درجة إنهاء الجدل. وتبدو هذه قصة أمريكية بدرجة أكبر.

غدًا الذكرى الثامنة والخمسون لقصف هيروشيما بالقنبلة الذرية. وقد أريقت محيطات من الحبر حول سؤال عما إذا كان قرار هارى ترومان باستخدام القنبلة مبررًا، وما إذا كان اليابانيون سيستسلمون بدون استخدامها، وما إذا كانت القنبلة، من ثم، بديلاً حقيقيًا لغزو دموى، وما إذا كان المقصود حقًا بالقنبلة هو تخويف الروس، وما إذا كان قرار ترومان فى الحقيقة، مع أخذ حركة الحرب فى الحسبان، قرارًا صائبًا. مثل هذه الأسئلة لم تختف قط لأن كلاً منها يزعم أن له بعض الحق فى معرفة الحقيقة، وحتى لو كانت جزئية فقط. ولكن «الفروض الأساسية» التى تكمن تحت استخدام القنبلة نادرًا ما يتم تناولها أو بحثها.

«حين وجدنا القنبلة استخدمناها». هذه هى الكلمات التى قالها ترومان فى خطاب إذاعى للشعب الأمريكى مساء ٩ أغسطس، وهو اليوم الذى أسقطت فيه قنبلة ثانية على نجازاكى. «لقد استخدمنا ضد أولئك الذين هاجمونا دون تحذير فى پيرل هاربور، وضد أولئك الذين أجاعوا أسرى الحرب الأمريكيين وضربوهم، ضد أولئك الذين تخلوا عن كل مبادئ قوانين «الحرب العالمية». وكان من النادر أن يتحدث الرئيس ترومان، أو غيره ممن برروا استخدام القنبلة، بهذه الطريقة مجددًا - بيان مباشر للانتقام بوصفه الدافع الرئيسى للتدمير الكلى للمدينتين اليابانيتين. وفى ملاحظاته المذاعة بالراديو، واصل ترومان حديثه لكى يضيف المبررات الأخرى: «لقد استخدمناها لكى

نقصر من فترة عذاب الحرب، لكى ننقذ حياة الآلاف والآلاف من الشباب الأمريكيين. وسوف نستمر فى استخدامها حتى ندمر تمامًا قوة اليابان على شن الحرب. ولن يوقفنا سوى استسلام اليابان». ولكن حتى الاستسلام عندما جاء، جاء ليزيد النقاش بعد ما حدث؛ لأنه كان ما يزال يصر على سلطة الإمبراطور الدائمة، وبذلك لم يكن استسلامًا بلا قيد أو شرط. وإذا قبلنا استسلامهم المطاط بعد القنبلة الذرية، فلماذا لم نقبله من قبل؟

وكان لا بد لكل تبرير طُرح لاستخدام القنبلة الذرية أن يحتجب خلف سحب الغموض، باستثناء مبرر واحد، الانتقام. لقد كان ذلك المبرر الأول الذى قدمه ترومان، متحدثا عن الحقيقة الأولى، وكان ذلك هو المبرر الوحيد الذى كان الشعب الأمريكى يحتاجه آنذاك. ولكن بسرعة، كان لا بد للانتقام أن يختفى من كل التفسيرات الرسمية، بل إن حتى الذين عارضوا ترومان نادراً ما تناولوه، إلا بشكل غير مباشر. فمن الأفضل كثيرا مناقشة ضرورة الغزو.

لا يحب الأمريكيون أن يعترفوا بأن الرغبة العارمة فى الانتقام يمكن أن تكون القوة الأساسية وراء الهدف القومى، وهذا هو السبب فى أن ذكرى ٦ أغسطس السنوية تصل دائمًا محملة بالغيوم. ففى سنة ١٩٩٥م عندما حاول الـ «سميثونيان» أن يقيموا معرضًا استرداديًا فى الذكرى الخمسين لهيروشيما وناجازاكى، أدى اتفاق الجمهور الأكبر من الناس إلى منع أى جهد «لإعادة النظر فى الفروض الأساسية» بشأن استخدام القنبلة. وألغى الرئيس بيل كلينتون المعرض. وما يخيف الأمريكيين هو إمكانية أن تكون الأسباب المعلنة بعيدة، أو حتى لا علاقة لها، بالأسباب الحقيقية لسلوك الأمة. ولكن ترومان وضعها بشكل صحيح فى المرة الأولى، لكى تفهم ٦ أغسطس ١٩٤٥م، عليك أن ترجع إلى ٧ ديسمبر ١٩٤١م، الجرح الذى كان يجب علاجه.

لقد طفت پيرل هاربور مرة أخرى على سطح الذاكرة الأمريكية فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. ومرة بعد مرة، كان يتم تقديم ما حدث فى پيرل هاربور على أنه السابقة المرتبطة بما حدث ـ المرة الأخرى الوحيدة التى عانت فيها الولايات المتحدة مثل هذه الضربة الموجعة. وكما كان الحال من قبل، لم يكن هناك قط شك فى أنه سيتم

الانتقام من هذه الضربة. فقد تحرك الرئيس بوش بسرعة بعيداً عن الحرب المجردة غير المرضية على الإرهاب، ثم من هرب أسامة بن لادن المثير للإحباط من أفغانستان، إلى الحرب على العراق لكى يُشبع تلك الحاجة البدائية. ونجحت الحركة. لقد ضمت الولايات المتحدة الأمريكية قبضتها يوم سقوط البرجين التوءمين. ووجهت الولايات المتحدة أخيراً لكمة إلى العراق. وهذا هو كل ما يهم.

والجدل حول «تبريرات» إدارة بوش المضللة لشن الحرب على العراق إنما هو تكرار للجدل الَذى لا ينتهى حول «التبريرات التى استخدمت لتبرير القنبلة الذرية». ولا تستحوذ أى مجموعة أسئلة منهما على الضمير الأمريكى. فليس هناك «إعادة تقييم معذبة للافتراضات الأساسية» فى هذه البلاد. وعندما نريد أن ننتقم، وننتقم، وحتى عندما تسقط عباءة التبرير المنطقى لتعريه، فإننا ننكر بحدة أن الانتقام، وليست العدالة، هو الذى يحدد غرضنا.

* * *

الحرب خاسرة

٢ سبتمبر ٢٠٠٣م

الحرب خاسرة بمعظم المقاييس التى خططت بها إدارة بوش لمغامرتها فى العراق، فإن هذه الحرب إخفاق بالفعل. فقد كانت الحرب ستجعل الشرق الأوسط مكاناً أكثر أمناً. وكانت ستقضى على الإرهاب. وكانت ستوضح للمستبدين الأشرار فى العالم أن القوة الأمريكية لا يمكن مقاومتها. وكانت ستؤدى إلى تحسين حياة العراقيين العاديين. وكانت ستؤدى إلى استقرار أسواق البترول. وكان الجيش الأمريكى سوف يلقى التحية بالورود.

لم يحدث شىء من هذا. فإن أشد العناصر راديكالية فى مختلف الحركات الفاشية فى العالم العربى اكتسبت طاقة من غزو العراق. والاحتلال الأمريكى نقطة تجمع للإرهابيين. وبدلاً من تقويض التطرف، كانت واشنطن هى الراعية لمرحلته التالية، والمعتدلون الآن فى كل مجتمع عربى فى وضع دفاعى أكثر من أى وقت مضى. وقبل الحرب، كان يمكن لتهديد السيادة العسكرية الأمريكية المهيمنة أن يخيف، ولكن الآن

ظهر أن هذه القوة محدودة للغاية من حيث ما تستطيع أن تنجزه. فمن أجل تغيير النظام، نزلت الولايات المتحدة على العراق بقوة ساحقة، وذلك فقط لكى تحقق المفاجأة والدهشة لدرجة أنها، حتى عندما كان صدام طليقًا، كانت هياكل المجتمع المدنى قد دمرت. أما الوكالات الإنسانية اللازمة لإعادة بناء هذه الهياكل فقد أخذت تهرب من العراق.

والسؤال بالنسبة للأمريكيين: الآن ماذا نفعل؟ كل من الديمقراطيين والجمهوريين على السواء يريدون إرسال المزيد من جنود الولايات المتحدة. وترتفع بعض الأصوات على أمل أنه يمكن تحقيق المزيد من «تدويل» الاحتلال، وهو أمر يبقى غير محتمل لأن واشنطن تحتفظ بالسيطرة المطلقة. ولكن أولئك الذين كانوا سيدفعون بالتعزيزات الحربية إلى العراق يرتكبون غلطة الزمن القديم. فعندما تولد القوة الباطشة مقاومة تكون الدفعة الأولى هى زيادة مستويات القوة. ولكن، حسبما يظهر تاريخ هذا النوع من الصراعات، فإن هذا لن ينتج سوى المزيد من المقاومة. وقد رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد خيار المزيد من القوات حتى الآن، ولكن، باسم حماية القوات فإن الضغوط من أجل التصعيد سوف تتوالد عندما تزيد أعداد قتلى الولايات المتحدة. إن الموت المحزن اليوم لقتل واحد أو اثنين يوميا فى حرب العصابات سوف يبدو أمرا لطيفا عندما يجد انتحاريو القنابل، وقذائف المورتار، أو حتى الصواريخ الأثقل طريقهم إلى الثكنات وقاعات الطعام.

وسيتم إرسال التعزيزات إلى الاحتلال، أو أن القوات الحالية سوف تخفف الضوابط التى ترد بها على الاستفزاز. وكل من الاستجابتين سوف تولد المزيد من إراقة الدماء وسوف تؤجل فقط اليوم الذى سيجب فيه على الولايات المتحدة أن تواجه حقيقة موقفها. إذ إن سياسة إدارة بوش الارتجالية قد انكشفت بما فيه الكفاية وظهر أنها لا تقوم على أساس غير الهلوسة. إن الأسلحة عالية التقنية يمكن أن تقتل البشر، ولكنها لا يمكن أن تجبرهم على اعتناق فكرة لا يريدونها. كما يبرهن استئناف البرنامج النووى فى كوريا الشمالية وإيران، فإن حديث واشنطن عن الشعر يحمل هزيمته داخله كما أنه تضليل للذات. فلم أجد أحدًا قادرًا على أن يتنبأ من سنة مضت أن السقوط من فوق حصان بوش العالى فى الإمبراطورية الأمريكية سيكون بهذه القسوة

وبهذه السرعة. أين هى المقارنات مع روما الآن؟ إن صعود واشنطن الإمبراطورية وسقوطها لم يستغرق مئات السنين وإنما استغرق مئات قليلة من الأيام.

عاجلا أم أجلاً، يجب على الولايات المتحدة أن تعترف بأنها ارتكبت غلطة مرعبة فى العراق، وأنها يجب أن تتحرك بسرعة لتصحيحها. ويعنى هذا أن الولايات المتحدة يجب أن تتخلى ليس فقط عن قيادة قوة الاحتلال وإنما المشاركة فيها. ويجب على الولايات المتحدة أن ترفض أى مزاعم بالسلطة أو حتى النفوذ فى العراق، بما فى ذلك البترول العراقى. ولا بد أن تقبل الولايات المتحدة المهانة التى سوف تصحب بالتأكيد حلول الأمم التى أنكرت عليها حق إعادة إعمار العراق محلها. وحين تخرج الولايات المتحدة على هذا النحو من البوتقة العراقية، فإن أولئك الذين تجمعوا لمعارضة «الشيطان الأكبر» سوف يفقدون سبب وجودهم، والشعب العراقى نفسه يمكن أن يتوالى مسئولية إعادة وطنه الغريق.

وهذا كله قد يبدو أمراً بعيد الاحتمال اليوم، ولكن شيئًا على شاكلته أمر لا بد منه. والسؤال الوحيد هو ما إذا كان سيحدث على المدى القصير، نتيجة قرار مسئول يتخذه السياسيون فى واشنطن، أو على المدى الطويل، نتيجة لرعب دموى لا ينتهى. وما يسمى دروس ڤيتنام غالبًا ما يتوسل بها الصقور والحمائم على السواء، ولكن هذا درس ينطبق على المشهد السياسى. فقد رأى الشعب الأمريكى أن تلك الحرب قد خسرت سنة ١٩٦٨م، وحتى عندما تم تصوير هجوم التيت على أنه انتصار بواسطة البنتاجون والبيت الأبيض. ولكن على مدى خمس سنوات أخرى، رفضت واشنطن أن تواجه حقيقة موقفها، حتى تعين عليها فى النهاية ولم يكن أمامها خيار. ولأن الزعماء الأمريكيين لم يستطيعوا الاعتراف بغلطة الأمة، ويتحركوا لتصحيحها، مات مئات الآلاف من الناس، أم هل كانوا ملايين؟

إن الحرب فى العراق حرب خاسرة. ترى ما الوقت الذى سوف نستغرقة لمواجهة تلك الحقيقة هذه المرة؟

* * *

(١٤)

الحرب تنتشر

فى بداية سبتمبر ٢٠٠٣م، تمت إذاعة شريط ربما يحتوى على صوت صدام حسين فى التليفزيونات العربى. وكانت الرسالة التى تحملها: «أيها الأبطال العظام، كثفوا ضرباتكم الجسورة ضد العدوان الأجنبى».

وبدت المقاومة ضد الاحتلال الأمريكى للعراق - ستة انفجارات فى يوليو وأغسطس - تنتشر فى الخريف. وأخذت الأهداف تتنوع من القوات الأمريكية إلى الأمم المتحدة إلى الصليب الأحمر، وإلى اليابانيين، والكوريين الجنوبيين، والإيطاليين والبلغار، والتايلانديين، والإسبان وكذلك أعضاء المجلس العراقى المختارين وغيرهم من المتعاونين مع الاحتلال. وبينما كانت الهجمات من قبل تأتى أساسًا من فلول البعثيين وفى المناطق السنية تأييدا لصدام حسين على ما يبدو، فإن مقاتلى الشيعة انضموا الآن إلى الساحة، وبعضهم يعلن أن هدفه إقامة دولة إسلامية على غرار طهران. والشيعة وهم أغلبية كبيرة فى العراق، كانوا يكرهون «صدام»، ولكن ما الفرصة التى تجعلهم يتوافقون مع الاحتلال الأمريكى بينما الرئيس بوش كان عند بداية الحرب قد وصم إيران باعتبارها جزءاً من محور الشر؟

وفى الولايات المتحدة، كانت هناك علامات على أن الاعتراضات الهامشية نسبيا على الحرب قد بدأت تستشرى على نطاق واسع. إذ إن الحملة الرئاسية المعادية للحرب لهوارد دين مثلا قد بدأت تأخذ حركتها. فبعد شهور من رفرفة راية «تم إنجاز المهمة» على ظهر حاملة الطائرات إبراهام لنكولن، كان الجنود الأمريكيون ما يزالون يقتلون. ومع هذا فإن السمة المريبة لحرب «التحالف» غاصت صوب النهاية أعمق من رفضها. وسواء عرف الأمريكيون أم لا؛ فإن صدام الحضارات الخاص بأسامة بن لادن كان يجرى بالفعل. إذ إن المجاهدين الإسلاميين من سوريا وباكستان والمملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد العربية قيل إنهم انضموا إلى الصراع فى العراق، كما أن الانطباع فى دار الإسلام بحرب دينية ضد المسلمين ترسخ أكثر من ذى قبل.

ولكن بينما صارت الشقوق المقسمة للأمة فى العراق أشد وضوحًا، أظهرت الولايات المتحدة دلائل إسراعها فى التراجع عن المسئولية. إذ إن تسليم بعض الهيئات السيادية للعراقيين كان يجب أن يحدث قبل وقت كاف من الإدلاء بأصواتهم فى انتخابات الرئاسة، (والشىء الوحيد الذى يهم الرئيس چورچ دبليو بوش أكثر من حروبه هو إعادة انتخابه). وفى الوقت نفسه بدأ زعماء الشيعة يتساءلون صراحة عن الإجراءات التى فرضتها الولايات المتحدة لإعادة السيادة إلى العراق. وبدأ كابوس جديد لواشنطن يأخذ شكله: العراق تحت نظام حكم إسلامى شيعى. كان آخر شىء تنويه إدارة بوش من ذهابها إلى الحرب فى العراق هوَ خلق كتلة سلطة شيعية راديكالية فى المنطقة ـ العراق فى تحالف وثيق مع إيران فى النهاية. وكان أقدم القوانين العسكرية ـ قاعدة النتائج غير المقصودة ـ يبرهن مرة أخرى على قدرته لفرض نفسه.

* * *

الحادى عشر من سبتمبر الآخر

١١ سبتمبر ٢٠٠٣م

إن صدفة التواريخ أمر ثمين للبشر؛ لأنها تخلق الانطباع بأنه تحت فوضى الحالة العادية يكمن هيكل النظام. إن مرور الزمن ليس مسألة فرصة، بل إنه حتى الأشياء التى لا تبدو مرتبطة بعضها ببعض إنما هى مرتبطة سويًا، إذا لم يكن بروابط الصدفة الوقتية، فإنها مرتبطة بالمعنى. فالكائن البشرى الذى يحمل إحساسًا بالتاريخ، وهو ينظر بسرعة إلى الماضى، يتطلع إلى وضع الأحداث التى تبدو يائسة بعضها إلى جانب بعض؛ لأنها سوف تكشف عن الرابطة الخفية التى تفسر الأهمية الكاملة لهذه الأحداث.

إن الحادى عشر من سبتمبر سوف يعيش فى الذاكرة الأمريكية. ولكن كماذا؟ فى الذاكرة تحدث الأشياء مرة بعد مرة. ففى ١١ سبتمبر ١٩٤١م، وفى نفس اللحظة التى اصطدمت فيه طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة قم ٧٧ بالپنتاجون تقريبا بعد ستين سنة، تم شق الأرض لإقامة هذا المبنى فى احتفال رصين. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٤م وصل جنود الحلفاء إلى الحدود الألمانية، لكى يضعوا نهاية مصير هتلر. ولكن أيضا فى

١١ سبتمبر ١٩٤٤م، وحسبما قرأت فى كتاب سيبالد On the Natural History of Destruction، كان الألمان يرقبون سماء الليل فوق مدينة دار مشتادت: «كان الضوء يكبر ويكبر حتى كان الجزء الجنوبى كله من السماء يبرق، وتلمع خلاله طلقات حمراء وصفراء». لقد كانت ليلة من القصف المرعب الذى قام به الحلفاء. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٧٣م قام الإرهابيون بإطاحة عنيفة للحكومة الديمقراطية فى شيلى. فى تلك الحالة، تمثلت النتيجة فى مصرع رئيس الدولة سلفادور اللندى، ولم يكن الإرهابيون تحت رعاية المجموعات العدمية، وإنما تحت رعاية الولايات المتحدة. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩٠م، كما رأينا ألقى الرئيس چورچ بوش الأب أشهر خطاب له ليعلن عن «نظام عالمى جديد» كمقدمة لحرب الخليج الأولى.

إن ١١ سبتمبر بوصفه ذكرى سنوية للعنف الوحشى يدفع العقل أيضا إلى ١١ سبتمبر ١٩٤٥م، التاريخ الذى يحدد اقتراح وزير الحرب هنرى ستيمسون بعد هيروشيما على الرئيس ترومان بأن تتقاسم الولايات المتحدة فى الحال أسرار القنبلة الذرية مع الاتحاد السوڤييتى لكى يحول دون سباق تسلح «ذى نوعية يائسة» على حد تعبير ستيمسون. وقال: «الدرس الرئيسى الذى تعلمته فى حياتى الطويلة هو أن الطريق الوحيد لجعل رجل جديراً بالثقة هو أن تثق به». وكما لاحظت منذ سنة مضت، فإن اقتراح ستيمسون يضع علامة على الطريق الأمريكى الذى لم يسلكه أحد.

فى ١١ سبتمبر ١٩٠٦م تجمع أكثر من ثلاثة آلاف رجل من أصول هندية فى مسرح الإمبراطورية بجوهانسبرج، بجنوب إفريقيا، لإدانة القانون الذى كان قد تم تمريره للتو Asiatic Law Amendment Ordinance ـ الذى كان مجموعة جديدة من القوانين العنصرية تجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية. وكما عرفت من كتاب جوناثان شل المذهل الذى صدر حديثًا The Unconquerable World، فإن أحد أولئك الذين أقسموا على عدم إطاعة مثل هذه القوانين كان موهانداس كرمشاند غاندى. فقد تعرف على هذا الالتزام المشترك بتصرف فردى بشكل جذرى ـ وقال فيما بعد عن ذلك اليوم: «لقد ظهر مبدأ جديد» ـ بوصفه الشرارة التى تولدت عنها الساتياجراها، أى قوة الحقيقة. وقال غاندى: «إن تأسيس أول مقاومة مدنية تحت ما كان معروفا آنذاك باسم المقاومة السلبية كان بمحض المصادفة. . كنت قد ذهبت إلى الاجتماع دونما حل فى الذهن.

وقد تولد الحل فى الاجتماع . وما يزال ينمو» . فما بدأ فى ذلك اليوم الحادى عشر من سبتمبر قيض له أن يولد القصة المضادة العظيمة عن اللاعنف الذى سرى فى خلال أعنف قرن شهده التاريخ .

وعند فجر القرن الجديد ، ما القصة التى نرويها؟ هل يمثل ١١ سبتمبر تجربة الحزن الأمريكى فقط ، وشعور الضحية وتبرير الانتقام فحسب؟ هل يعيش ١١ سبتمبر فقط بوصفه الآلة التى تقود النزعة الحربية الجديدة الصادمة لدى أمريكا؟ أو أننا فى استعادة ذكرى أولئك النفر من أهالى نيويورك بنبلهم وإنكارهم لذواتهم هم وعمال البنتاجون الذين عادوا لدخول المبانى المصابة ، والذين بقوا لإخراج الآخرين ، أو الذين حافظوا ببساطة على هدوئهم بينما كان كل شى ينهار من حولهم ـ يمكن أن نحمل هذا التاريخ معنا بوصفه صورة لإمكانية الحب العام؟ ربما يساعدنا أن نرى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى سياق تلك الأيام من سنوات أخرى . كيف ، عندما تم حفر الأرض للمرة الأولى لبناء مبنى البنتاجون ، افترض من بنوه أنه سيكون مستشفى؟ كيف كان قائد أعظم حرب خاضتها أمريكا يسعى فى أعقابها إلى إنهاء الحرب إلى الأبد؟ كيف يجب أن تؤدى معرفة أن واشنطن أيضا يمكن أن ترعى الإرهاب إلى المهانة؟ كيف يتحقق الحلم القديم باللاعنف؟

إنه أمر عادى أن نفكر فى مثل هذه الحوادث بشكل منعزل ، ولكن يمكن أن يكون هناك نوع من علم الآثار الذى يكشف عن التوافق وحالات الانسجام فى طبقات الزمان . ذلك أن ١١ سبتمبر ذكرى سنوية للمستقبل . يوم يتم فيه تقديس أسوإ الدوافع البشرية ـ وأفضلها . وهو بالتالى يوم يضع أمامنا فرصة الاختيار . كيف سنعيش الآن؟ نحن على الأرض ونحن نحيا أقصر الفصول . وإذ نفكر بشكل خاص فى أولئك الذين ماتوا فى نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا فلنكرمهم ببناء الأرض ، بدلاً من تدميرها . فلنصنع السلام ، بدلاً من الحرب .

***

من التحركات السياسية إلى المقاومة

١٦ سبتمبر ٢٠٠٣م

الكارثة فى الفلوجة ـ عشرة من رجال الشرطة العراقية قتلتهم القوات الأمريكية ،

التى تتصرف «مثل صدام بالضبط» حسبما قال أحد العراقيين ـ أن تكون مناسبة اعتراف جديد. إن البيئة الطبيعية للحرب هى الفوضى والاضطراب. ولكن يحدث شىء فى لحظة لكى يضع نقاط الغموض فى بؤرة الاهتمام، وتصير السمة الحقيقية لما يحدث واضحة. فالواقع أن هذا هو المعنى الذى أعطاه أرسطو لكلمة «كارثة» فى تحليله للشكل المأساوى، إذ إن عشرة من الرجال الذين يحتاجهم العراق لاستعادة عافيته أكثر من غيرهم ـ يقتلون بأيدى جنودنا؟ الشرطة الموالية للأمريكيين فى خطر من الأمريكيين؟ إنها مأساة بالتأكيد، ولكن هذا هو ما تكشف عنه الحادثة :

* لم تكن هذه الحادثة، حقًا، انحرافًا. إذ إن قتل الحلفاء، جزء لا يتجزأ من الاحتلال الأمريكى الآن. لقد تجاوز الموت الاستراتيجية.

* سواء كان الجنود الذين قتلوا رجال الشرطة العراقيين «عامدين» هذا الفعل أم لا أمر خارج الموضوع. إذ إن نزعة التقوى الأمريكية تغفر النتائج الخسيسة عندما يتم ارتكابها بحسن نية، ولكن النزعة الأخلاقية تقاس بالنتائج أكثر من النوايا. لا يوجد عسكرى من جنود الولايات المتحدة برىء فى هذا المشروع.

* بيد أن كل جندى أمريكى فى العراق قد أخذ رهينة. وخاطفو الرهينة ليسوا هم الإرهابيين وإنما هم الحفنة القليلة من موظفى إدارة بوش الذين انتهكوا تراث الولايات المتحدة، والمعاهدات الدولية، والثقة المقدسة التى يدين بها القادة لجنودهم.

* وأولئك الذين خطّأوا إدارة بوش بسبب التفاصيل التى سقطت فى هذه العملية (قوات أقل من اللازم، تخطيط ردىء، عدم وجود تأييد أجنبى كاف. . . إلخ) تفوتهم النقطة الكبرى وهى أنه لم يكن هناك طريق «صحيح»، لغزو العراق، كما أنه لا يوجد طريق «صحيح» لاحتلاله. فالعراق ملك العراقيين.

* إن فساد سياسات بوش فى العراق يصيب كل الأمة الأمريكية. إذ إن مثل هذا العنف العدوانى يتطلب الخداع، وتكون الأكاذيب محل ترحيب فى واشنطن أكثر من أى وقت مضى منذ ڤيتنام. ووزارة العدل تتحول بشكل مطرد إلى أداة للقهر. وعلى أعتاب الانتخابات نجد الشعب الأمريكى فى قبضة الضجر المستشرى.

إذن ما الذى ينبغى عمله؟ مثل هذه الاعترافات تغير السياق لما هو مطلوب الآن.

فبدلاً من المناورات السياسية، حان وقت المقاومة. ولا يحتاج المرء إلى تأكيد المعادلة الأخلاقية السهلة لكى يعرف أن السوابق المتصلة بالظروف الحالية فى الولايات المتحدة تتمثل فى حركات المقاومة التى تشكلت على قواعد عريضة من المواطنين التى عبأت الناس ضد هتلر فى أربعينيات القرن العشرين، وضد حرب ڤيتنام فى الستينيات، وضد الكرملين فى الثمانينيات. ويعنى هذا:

* أن الأمل يتحول بعيداً عن السياسيين الديمقراطيين الذين يتطلعون إلى أن يحلوا محل بوش. إذ إنهم بإظهار معارضة خجولة غامضة، على حين يفترضون أن ثمة ضرورة كبيرة لوجود أمريكا العسكرى الحالى فى العراق، فإنهم يكونون الشركاء الفعليين المتعاونين مع بوش.

* «دعم القوات» عبارة يعاد تحديد معناها. فبدلاً من إخراس المعارضة خوفا من تقويض الروح المعنوية، يعلن أن جنود الولايات المتحدة قد تم تجنيدهم فى حرب غير ضرورية وبالتالى غير أخلاقية. ببساطة يجب إخراج القوات من العراق.

* ويصبح المال هو الحد القاطع للجدل السياسى. إذ إن كل ميزانية الاحتلال الأمريكى، بما فى ذلك مبلغ ٨٧ بليون دولار أمريكى طلبها بوش الأسبوع الماضى، ينبغى معارضتها، يجب استقطاع المخصصات العسكرية.

* تتأكد الوطنية بالمعارضة أكثر من الموافقة. إذ إن إدارة بوش قد حولت بحذر التعبيرات الأمريكية عن حب الوطن إلى رخصة بسياسة خارجية إجرامية. ومثلما خطف بوش شبابنا فى القوات المسلحة، استولى أيضا على العلم. وحتى الآن فإن الطريقة الوحيدة لاسترداد العلم هى إنزاله.

* يرفض الأمريكيون أن يخدعهم أحد، حتى فى أثناء الكذب عليهم. وليس هناك طريق أمام رئيس أمريكى لأن يشتبك فى مثل هذا العمل العدوانى غير المسبوق دون محاولة تشويه حقيقية. إن وقاحة تلاعب بوش فى حد ذاتها تحفز عملية خداع للنفس تعاونية بين الناس. وهذا ما تنبغى مقاومته على كل حال.

* إن الخطر المميت يبدو واضحًا. إذ إن ممارسات بوش السياسية قد أعادت تحريض انتحاريى القنابل فى جميع أنحاء العالم، بينما أشعلت فى الوقت نفسه دورة جديدة

من انتشار الأسلحة النووية. إن مشهد ذلك الخليط ـ الأسلحة النووية بأيدى المتعصبين الانتحاريين - يمثل أكبر خطر فى التاريخ الإنسانى. لقد أصبح بوش نفسه بهذا هو الشكل النهائى للانتحارى بالقنابل.

من الآن المقاومة. يجب أن تأخذ الحياة العامة فى أمريكا طاقتها الآن من كلمة «لا». إن مثل هذه المعارضة تفعل شيئين. وكما حدث بشكل خاص فى الإمبراطورية السوفييتية، فإنها يمكن أن تحول الممارسات السياسية، بل وتحرك المرشحين الديمقراطيين من الدعوات الخجولة للمواءمة فى الهوامش إلى مطالب التغييرات الأساسية فى السياسة. وفى الوقت نفسه، فإن الحياة فى المقاومة تبقى حياة إنسانية. وفى زمن من اللاأخلاقية العارمة، تكون هذه هى الطريقة الوحيدة للحياة بإنسانية.

ويمكن للكارثة فى الفلوجة أن تكون هى مناسبة مثل هذا الاعتراف. ولكن الكارثة حسب تعاليم أرسطو أيضا، هى مناسبة الرجوع. لقد حان الوقت لتحويل زخم حرب بوش على نفسها.

***

عقيدة معاداة الإرهاب

٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣م

يعرف الجميع ما الذى يهدد الولايات المتحدة: الإرهاب. ولكن ما الإرهاب بالضبط؟ والإضافة الملحقة بآخر الكلمة «ism» هى المفتاح. إذ يعرفها القاموس بأنها «عقيدة أو نظام أو نظرية متمايزة». وهكذا، فإن ما نخشاه ليست هى الأفعال غير المنسقة والتى لا يربطها رابط من العنف العدمى ـ الأنثراكس المرسل بالبريد، الطائرات التى تتحول إلى صواريخ، لصوص الكمبيوتر الأشرار ـ ولكن «نظام مبادئ» متماسك يرعى مثل هذه الأفعال. والإرهاب بهذا المعنى يمكن أن يهدد حتى أمة قوية مثل أمريكا لأنه مفهوم أنه يمتلك قدرة عالمية، وطموحًا قد يقضى على العالم، وشبكة تحالفات معادية فى الخارج، وقدرة على استغلال جوانب الضعف فى ديمقراطيتنا بالداخل. ورد أمريكا هو الحرب على الإرهاب، كما لو أن العدو شىء واحد.

ولكن هل هذه الطريقة فى تقييم الخطر خاطئة؟ لقد كانت الإضافة اللاحقة «ism»

هى مفتاح تعريف معنى تهديد مميت مرة من قبل، وفى هذه الحالة كانت النتيجة قراءة خاطئة كارثية لما كانت الولايات المتحدة تواجهه ـ سواء فى الخارج أو فى الوطن. ولكى نقيِّم الخطر الحالى، ربما يساعدنا أن نفكر فى زمن آخر، وخطر آخر.

فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٧م، ألقى الرئيس ترومان خطبة تحدد «مذهب ترومان»، وهو تحديد صريح للخطر الذى يمثله الاتحاد السوڤييتى. فبدلاً من رؤية طموح الرجال فى الكرملين فى ضوء المصطلحات التقليدية عن المصالح الذاتية الوطنية، أو حتى الأغراض الإمپريالية مثل القياصرة من قبلهم، رأى ترومان صراعا ثنائيًا على الطريقة المانوية بين «الحرية» و«ism» فى كلمة «Communism» أى الشيوعية. والتهديد القادم من موسكو لم يكن هو التحدى الطبيعى لأمة تنافس من أجل القوة أو الممتلكات. لقد كان الكرملين لا يريد فقط عاصمة عابرة للقوميات ولكن عاصمة تتجاوز التاريخ. كانت روسيا ترى أنها مسوقة بتصميم كونى يرتبط بنهاية العالم وإنجيلى لكى تقلب نظامًا بأسره من المعتقدات ـ ولا سيما نظامنا نحن، وليس مجرد تعديل الحدود والاقتصاديات.

اقترحت خطبة ترومان، فى تعريفها الخطر بمصطلحات متجاوزة، استجابة لمثل هذا الاكتساح الأيديولوچى ـ وهو مذهب بالتأكيد ـ يمكن أن توصف أيضا، حسب تعبير رجل دولة أمريكى صغير، بأنها «إعلان حرب دينية». مثل هذا التطرف البلاغى خدم هدفًا سياسيًا، بحيث ضمن التأييد فى الكونجرس وبين الأمريكيين لبرنامج الإدارة. ولكن برؤية موسكو فقط من خلال عدسات «ism» فى كلمة Communism، فات على الولايات المتحدة مغزى وأهمية الفروق الوطنية بين الحركات الشيوعية كافة، وسرعان ما وجدت نفسها متورطة فى جهد عبثى باتساع العالم «لاحتواء». ليست روسيا مهما كانت إمپرياليتها، ولكن كل حركة حول العالم ترفع راية كارل ماركس.

ولأن التهديد اعتبر على أنه نهاية العالم، فإن قدرة موسكو على إلحاق أذى حقيقى «بالعالم الحر» كانت محل مبالغة بشكل مستمر، مما ساعد أيضا على ضمان المساندة السياسية المحلية. فقد حل الهلع الغامض محل التحليل. وأيا كان تعريف الصراع فى موسكو، فإنه اكتسى فى واشنطن مغزى دينيًا وجه التحركات السياسية تجاه الحياة الآخرة « Better dead than Red» «الموت أفضل من الشيوعية»، وهو الأمر الذى يفسر

وحده كيف أن الولايات المتحدة استطاعت بهذه الحماسة أن تواصل سباق التسلح الذى خاطر بكل شيء فى هذا الجانب من الحياة الآخرة.

ليس هذا فقط. فقد هددت الـ ism داخل أمريكا أيضا، وهذا هو السبب فى أن البحث عن الشيوعيين يتطلب تعطيل الضمانات التقليدية للمواطنة الأمريكية، بداية من الأيام التى أعقبت خطبة ترومان التى أعلن فيها مذهبه. وقد أعاد الهلع المعادى للشيوعية تعريف أهداف الحكومة الأمريكية، التى استغلت ذلك الهلع آنذاك لكى تزيد التأييد والدعم لهذه الأهداف بين الشعب الأمريكى. ومفاهيم الـ ism التى هددت الولايات المتحدة وفرت مناخًا من الشك داخل البلاد وقلب الفهم التقليدى للعلاقات بين الأمم. قال إعلان السياسات NSC - 68 سنة ١٩٥٠م: «إن الاتحاد السوفييتى، عكس المتطلعين السابقين إلى الهيمنة، تدفعه عقيدة متعصبة جديدة، مناقضة لعقيدتنا، ويسعى لفرض سلطته المطلقة على بقية العالم».

وربما يكون حقيقيّا أن موسكو تحت حكم ستالين كانت تهدف إلى السيطرة على العالم، ولكن، إذا كان ذلك كذلك، فإن الهدف كان سيطرة موسكو ـ لا سيطرة الشيوعية. أى التحركات السياسية الإمبراطورية التقليدية، وليس اللاهوت. وفشل واشنطن فى استيعاب هذا الفرق هو الذى تسبب فى استجابة أمريكية شبه دينية، مما أعطى الروس الدافع لتبنى الخطاب الكونى الذى توقعته واشنطن، ثم ساق كلا من الدولتين تجاه حافة معركة هرمجدون نووية. تصورت واشنطن فانتازيا حرب مقدسة وانطلقت لكى تجاريها.

هل يحدث هذا ثانية؟ وثمة إشارة إلى أن لاهوتًا «للإرهاب» قد ظهر بحد ذاته هى أن صناع الأذى المنتشرين على نطاق واسع قد تم رفعهم إلى مكانة صوفية. إذ إن الزعماء القبليين المصابين بالخوف وكراهية الأجانب، والجماعات المتمردة المحلية، ورؤساء المافيا، والمحاربين من أجل الحرية، والفوضويين، و«الأنظمة المارقة»، تم تصنيفهم الآن جميعا على أنهم إرهابيون، كما أن أهدافهم الخطيرة، ولكنها غير متساوية، قد وصمت بأنها الإرهاب. وهذه الـ ism تبرر حرب أمريكا العدوانية فى الخارج، وهجمات المرسوم الوطنى على الحقوق فى الداخل. ولكن الحرب الباردة تعلمنا أن مثل هذا التضخيم المتجاوز للخصوم هو الشيء الذى يجعلهم خطيرين حقًا.

رب بويكن الأكبر(*)

٢١ أكتوبر سنة ٢٠٠٣م

قال الليفتنانت چنرال وليم چ . . بويكن عن خصمه المسلم: «عرفت أن ربى أكبر من ربه، وعرفت أن ربى كان ربًا حقيقيًا، وأن إلهه كان صنمًا». تلك الملاحظة وغيرها من الملاحظات التى تنتقص من قدر الإسلام تسببت فى هياج فى الأسبوع الماضى، لا سيما وأن الچنرال يشغل موقعًا مهمًا فى الحرب على الإرهاب. وطفت على السطح ذكريات فظيعة عن استخدام الرئيس بوش الغافل لمصطلح«الحملة الصليبية»، لتعريف تلك الحرب، وانفجرت تلك المخاوف علنًا من أن الحرب على الرغم من الإنكار هى حرب دينية على أى حال.

ولم يبد على رؤساء بويكن فى البنتاجون أنهم فى الجانب المهاجم، ولكن زعماء المسلمين رأوا فى ذلك عدوانًا، وكذلك أعضاء فى الكونجرس. ويتخيل المرء كيف ظهرت القصة فى وسائل الإعلام العربية. ففى يوم ١٧ أكتوبر قدم الچنرال نوعًا من الاعتذار، فقال: «إننى لست متعصبًا ولا متطرفًا، إننى فقط جندى ذوعقيدة ثابتة».

والذين انتقدوا الچنرال على حق فى أن يستهجنوا التطاول على عقيدة المسلمين، ولكن المشكلة أعمق من الشوفينية الدينية التى تم التعبير عنها بطريقة فجة. والحقيقية أن تصريحات الچنرال لا تجعل منه متطرفًا. فلم يكن من «الذوق الحديث» أن يتحدث بصوت عال عن مضامين«عقيدته الثابتة»، ولكن المزاعم الحصرية التى يرى بها معظم المسيحيين يسوع المسيح، من أروقة الڤاتيكان إلى خيام الإحياء الإنچيلى، تنطوى على إهانة دين الآخرين. فعندما يتحدث الكاثوليك عن«الخلاص» من خلال يسوع فقط، أو عندما يحدد البروتستانت «التبرير» فى الإيمان بيسوع، فإن ذلك يكون طعنًا موجهًا إلى كل العالم غير المسيحى. وفى الماضى، كانت المسافة من مثل هذا اللاهوت الحصرى، إلى احتقار أولئك الممنوعين أو المستبعدين خطوة قصيرة حقًا، وكانت المسافة من مثل هذا الاحتقار إلى العنف الصريح أصغر، ولا سيما فى العلاقة مع الإسلام.

(*) انظر فى آخر الكتاب صفحة ١٢١ مقتطفات من مقالة فريد زكريا فى مجلة نيوزويك، عدد ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م، تحت عنوان: وجهة نظر.

كانت استجابة الأسبوع الماضى لما قاله الچنرال بويكن ، على أى حال، مؤشراً على حساسية جديدة على الروابط ما بين اللاهوت غير المتسامح والسلوك غير المتسامح. وخطر الحرب الدينية خطر حقيقى. والحرب الدينية تتبع المقاصد الواعية للمحاربين بقدر أقل من تتبعها للمعتقدات التى تلهمهم. ويجعل بويكن السؤال ملحًا : ما نوع الرب الذى يؤمن به هذا الچنرال والأمة التى يخدمها؟

إن الچنرال بويكن يصف ربًا أكبر فى صراع مع أرباب أصغر، بحيث يقهرهم. ويسحق الأصنام. وعقيدة الچنرال تتقوى بافتراض أن الرب، أيضًا يمكن أن يلجأ إلى العنف، والنصوص المؤسسة فى اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرها من الديانات تضع هذا بالضبط. يقول سفر الخروج (١٥ : ٣) «إن الرب محارب». ولأن العنف أحد لوازم الوجود الإنسانى، فإن الديانات غالبًا ما تنسبه إلى الرب، ثم يدور العنف المقدس دورته لكى يبرر الاستعداد الإنسانى للتصرف بعنف. والرب القدير المقاتل راسخ تمامًا فى خيال البشر، لدرجة أنه حتى الملحدين يؤكدونه بالطريقة ذاتها التى ينكرون فيها وجود مثل هذا الرب.

والمعضلة الأخلاقية التى تواجه جميع الديانات اليوم، ولكن ربما تواجه الديانات السماوية بشكل خاص، تتجلى واضحة هنا : كيف يثبت المرء عقيدته دون الحط من قدر عقيدة الآخرين. ويمكن أن تبدو المشكلة وكأنها بلا حل إذا ما فهمت الديانة على أنها جدلية فى بنائها الداخلى - يتم تعريف الحقيقة فيها على أنها تناقضات بين الأرض والسماء، وبين الطبيعى وما هو خارق للطبيعة، بين المعرفة والوحى، الكفر والإيمان، العلمانية والإيمان، والشر والخير. وإذا ما كان الخيال الدينى مبنيًا بالضرورة على مثل هذه الاستقطابات، فإن الدين يكون حتمًا مصدراً للصراع والاحتقار والعنف. دينى هو دين صحيح؛ ودينك وثنى. ربى أكبر من ربك. ربى محارب، وكذلك أنا.

بيد أنه يمكن أن يكون شيئًا مثل الإيمان الدينى الجامع، يرفض هذه الطريقة فى التفكير. فبدلاً من القطبية، فإن هذه الطريقة الأخرى للتدين تفترض الوحدة - الوحدة بين الرب وخلق الرب، وهو ما يخدم بدوره بوضفه مصدرا للوحدة بين مخلوقات الرب. هذه الحقيقة التصالحية هى التى تؤكدها كل الديانات الكبرى - وهى الديانات الإبراهيمية الثلاث - عندما تعرف الرب، أساسًا، بالحب وليس بالصراع. ويقول

الچنرال بويكن إن ربه«حقيقى»؛ لأن ربه يجلب له النصر فى المعركة. ولكن المعيار الأول الذى تقاس به حقيقية الرب، حتى فى تراث بويكن المسيحى الخاص، ليس هو «الكبر»أو القوة وإنما هو الحب العاطفى. الرب هو الحب، والطريقة الوحيدة لتكريم الرب هى أن تحب جارك. وهذا ليس موضوعًا ثانويًا وإنما هو التأكيد الأساسى.

ومن ثم، فقد أخطأ بويكن ـ ولكن هذا ما تفعله جحافل من المؤمنين بما يؤمن هو به، من الڤاتيكان، إلى تلك الخيام الإحيائية، إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض. كان هجوم الچنرال هو الحديث بصوت عال عن مضامين لاهوت ما يزال منتشرًا على نطاق واسع. ولكن هذا اللاهوت خطر الآن. ولم تعد التعددية الدينية المحترمة أملاً ليبراليا فحسب وإنما هى شرط للعدالة والسلام. وفى القرن الحادى والعشرين، فإن الديانة الحصرية هى الطريق الأكيد إلى الحرب الدينية، ولا يهم مدى انتشارها، ولا يهم كيف يتم إخراس اللعنات التى تسير على هدى تعاليمها المطلقة.

***

السيادة الكاملة

٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م

ربما لا تكون حرب العراق هى أسوأ ما يفعله الرئيس بوش. ففى الشهر الماضى تم تأجيل مؤتمر الأمم المتحدة لنزع السلاح فى چنيڤ لأنه أخفق تمامًا. وهذا هو المجلس الذى فرض منذ سنة ١٩٥٩م السيطرة على الأسلحة ومعاهدات وتخفيض التسلح ـ نظام التعاون و«الثقة المحققة» التى ساعدت على إنهاء الحرب الباردة دون مذبحة نووية. وكانت آخر معاهدة تخرج من چنيڤ هى معاهدة المنع الكامل للاختبارات النووية سنة ١٩٩٦م، وقد كان مؤشر موقف إدراة بوش المستجد تجاه المشروع برمته هو موافقتها الصريحة على رفض مجلس النواب فى الولايات المتحدة تلك المعاهدة.

والآن الموضوع هو السؤال الخطير عن الأسلحة فى الفضاء، وعلى مدى عدة سنوات، عندما اندفعت الصين وغيرها من الأمم إلى معاهدة تهدف إلى منع سباق تسلح فى الفضاء الخارجى، بينما أصرت الولايات المتحدة على أن مثل هذه المعاهدة ليست ضرورية. وفى أغسطس الماضى قدمت الصين حلا توفيقيًا لمطالبها، على أمل

أن تعتدل الولايات المتحدة فى رفضها العنيد، ولكن لم يحدث أى تقدم. أما الآن، فإن معاهدة الفضاء الخارجى سنة ١٩٦٧م تحكم الاستخدامات العسكرية ولكن الصين تجادل بأن الخطط الاستراتيجية التى تناقش علنًا فى البنتاجون، بما فى ذلك برنامج الدفاع الصاروخى، تتضمن نشر الصواريخ على نحو ينتهك المعاهدة. وعلى حد تعبير چون شتاينبرونر وچيفرى لويس فى Daedalus «لقد تنبه الصينيون بشكل خاص إلى وثيقة تخطيط طويلة المدى سنة ١٩٩٨م أذاعتها قيادة الفضاء بالولايات المتحدة. وقد حددت تلك الوثيقة الخطوط العريضة لمفهوم يسمى الاشتباك الكونى - مزيج من المراقبة والمسح الكونى والدفاع الصاروخى وقدرات قائمة على ضربات موجهة من الفضاء يمكن أن تساعد الولايات المتحدة بأن تأخذ زمام المبادرة فى أى مكان بالعالم وتحرم بلادًا أخرى من مثل هذه القدرة».

وإذا كان الصينيون قد أخذوا حذرهم سنة ١٩٩٨م من مثل هذه «السيطرة الكاملة» كما يسميها مخططو الولايات المتحدة، فلك أن تتصور كم التهديد الذى سيشعرون به الآن من أن شطحات البنتاجون عن الضربات الاستباقية والتفوق الكونى الدائم قد صارت هى سياسات بوش الرسمية. فعلى مدى عقود من الزمان كان «الردع» و«التوازن» هما اللذين يحددان موقف الولايات المتحدة. ومثل هذه التأكيدات يمكن أن تحدث فى واشنطن بمقاصد طيبة فقط، ولكنها تنزل على الآذان الأجنبية بوصفها تعبيرًا عن العدوان. وعندما يتعلق الأمر بالفضاء، فإن الصينيين لديهم الحق فى التفكير فى أنهم المقصد الرئيس لمثل هذا التخطيط، وهذا هو السبب فى أنهم يريدون بأى شكل مجموعة من القواعد التى تحكم الاستخدامات العسكرية فى الفضاء.

ومنذ أسبوعين، وضعت الصين رجلا فى الفضاء، وهى إشارة إلى وصول الصين - وإلى وصول هذا السؤال الخطير. فقد استثمرت بكين بكثافة فى التطور التجارى للفضاء وسوف تصبح منافسًا اقتصاديًا مهمًا فى ذلك المجال. ولكن مثل هذه المنافسة السلمية تتطلب إطارًا من الاستقرار، وليس مقبولاً أن تتابع الصين برنامجًا فضائيا غير عسكرى على حين تشعر بأنها مكشوفة أمام السيادة العسكرية الأمريكية. لقد بنت الصين قوة ردع صغيرة مع عشرات من الصواريخ النووية، ولكن معاهدة الولايات المتحدة الكونية القائمة على أساس الدفاع الصاروخى، سوف تؤدى بسرعة إلى الحد من قيمة الردع فى مثل هذه القوة. وسوف يتعين التوسع بشكل ضخم فى الترسانة النووية الصينية.

وفى الوقت نفسه، فإن قدرة أسلحة أمريكا على «الحدود العليا» سوف تضع استثمارات الصين التجارية فى الفضاء موضع الخطر. ولن تتسامح أى دولة لديها القدرة إزاء هذا الخلل فى التوازن ما دامت قادرة على تغييره، ولا شك فى أن الصين ستكون لديها القدرة على مدى العقود القادمة. ورفض واشنطن التفاوض على القواعد، بينما هى تسعى إلى السيادة الدائمة وتؤكد الحق فى الضربات الاستباقية، يجبر الصين على الدخول فى سباق تسلح لا تريده. وهنا يحتمل أن تكون بداية حرب باردة تالية مصحوبه بكابوس تصعيد نووى بلا نهاية.

واليوم على السطح تبدو العلاقات بين الولايات المتحدة والصين طيبة. وفى استجابة جزئية للصين خفف الرئيس بوش، وهو فى آسيا، من رفضه لأن يقدم لكوريا الشمالية تأكيداً بعدم الاعتداء: وتقابل بوش مع الرئيس الصينى، هو چينتاو، وكرر تهنئة أمريكا برجل الفضاء الصينى. وفى هذا الأسبوع يقابل وزير الدفاع الصينى كاو جانشوان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فى واشنطن. ولكن تياراً سفلياً أسود يجرى بين الدولتين وهو مثقل بالمخاطر. إن المشكلة، حسبما ظهرت فى چنيڤ، هى رفض أمريكا أن تناقش المشكلة.

إن ما يجعل هذا الموقف مليئا باحتمالات السوء هو أن التخطيط الاستراتيجى العدوانى من جانب البنتاجون للفضاء ورفض إدراة بوش لقيود المعاهدة لا يجدان فقط من يعارضهما فى الخطاب السياسى الأمريكى وإنما لا يجدان من يلاحظهما. هل أشار الديمقراطيون حتى مجرد إشارة إلى الموضوع فى الجدل الجارى الآن فى ديترويت؟ ماذا لو أن الديمقراطيين أثاروا السؤال المتعلق بمؤتمر نزع السلاح الملغى؟ من الذى يحذر من استئناف سباق التسلح برعاية بوش؟ وأين الدفاع عن الفكرة، التى كانت مقدسة لدى الأمريكيين، بأن الفضاء الخارجى هو عتبة لا يجب على البشر أن يسحبوا عبرها المفاسد القديمة للحرب؟

* * *

(١٥)

كل احتلال ينتهى نهاية سيئة

فى نوفمبر سنة ٢٠٠٣م تزايد إجمالى قتلى العمليات العسكرية فى هذه الأسابيع القليلة فقط وبعد ستة أشهر من القتال الرئيسى، وفى الشهر الذى قام فيه الرئيس بوش بزيارة دعم معنوى للعراق، فى عيد الشكر، كان ذلك هو الشهر الأسوأ حتى الآن.

والواقع أن انعدام الأمن بشكل جذرى لقوات الولايات المتحدة لم يكن ممكنًا أن يتجلى بشكل درامى على نحو أكمل مما حدث فى التخفى الذى كان مطلوبًا فى مغامرة الرئيس يوم عيد الشكر: الكذب على والديه، إغلاق المجال أمام الحركة الجوية، حراسة بالطائرات المقاتلة، وهبوط بالأنوار مطفأة، والعجلات مرفوعة فى أقل من ثلاث ساعات. وإذا كان أشد ملاذ تحصينا فى العالم مكشوفًا للخطر على هذا النحو، فماذا عن الرجال والنساء والأطفال الذين خارجه، والذين يفترض أن هذه الحرب ستدعم رفاهيتهم؟

وفى وقت هذه الزيارة، كان يقال بشكل عام إنه فى العراق كان چورچ بوش قد أعطى أمريكا ضفتها الغربية، وأخذ جيش الاحتلال الأمريكى يقلد بشكل مطرد التكتيكات الفاشلة لجيش الدفاع الإسرائيلى. فإزالة المبانى، وحبس أعضاء أسر مقاتلى حرب العصابات، وإحاطة قرى كاملة بالأسلاك الشائكة، وفرض بطاقات الهوية، وانتشار نقاط التفتيش، وسوء معاملة المسجونين، والاغتيالات المقصودة، هى القوى الغاشمة لشىء يسمى عملية «المطرقة الحديدية». وكان لا بد للمنظمة الإنسانية Human Rights Watch أن تسجل بعض هذه الانتهاكات، ولكن وكما يصدق على الجيش الإسرائيلى، فإنه يصدق أيضًا على الانتقادات من داخل جيش الولايات المتحدة نفسه.

ومثل هذه التكتيكات فى إسرائيل هى بلا شك رد على الإرهاب الفلسطينى[1]، بيد

(١) هذه هى التسمية الإسرائيلية لأعمال المقاومة الفلسطينية ونحن بالطبع لا نوافق عليها، ولكن هذا هو نص المؤلف ـ (المترجم).

أنها مع ذلك قد أدت إلى تحويل الدولة اليهودية إلى أرض تقيم بها حامية داخل أسوار منعزلة. أما في العراق، فإن القوات الأمريكية، وهي أبعد ما تكون عن الانتصار، تبني «حاجز الأمن» الخاص بها. والأسلاك الشائكة مبعث طمأنينة.

أما الشعب العراقي، الذي تم تحديده موضوعًا للتحرير على أيدي الولايات المتحدة، فقد أعيد تعريفه مرة أخرى على أنه العدو. وكان هذا هو الموضوع الذي كشفته زيارة التباهي الخاطفة في عيد الشكر بهذا القدر من الوضوح. ذلك أن آخر قوة عسكرية عظمى لا تجاري في العالم قد تقهقرت وراء حاجز يتم الحفاظ عليه بكل قسوة، وكل حارس فيه متوتر بعصبية وأصبعه على الزناد مثل أي حارس في الخدمة السرية التي تحرس الرئيس.

قال بوش للأفراد الثلاثمائة من القوات التي تجمعت في مطار بغداد الدولي بجعجعة مستهترة: «إنني كنت فقط أبحث عن وجبة ساخنة في مكان ما». «أشكركم على دعوتي إلى العشاء». وانضم الرئيس إلى صف الآكلين ليملأ طبقه ببعض الطعام. ولكن في الحقيقة، لم يمكث الوقت الذي يكفي لأن يأكل. ولم يكن هناك شيء يدعو للاسترخاء. فمن حيث الصورة، كان دخوله إلى ملجأ أحد المطارات يعطي إحساسًا بأن مراقبًا ينزل من برجه إلى صالة الطعام ليتبادل بعض الكلمات القلقة مع حرس السجن. هل هناك شغب؟ تمرد؟ الكهرباء في الجو - إنذار بالمتاعب.

لقد أدت الزيارة إلى إزالة لغز في قلب عراق أمريكا: العرب نالتهم المهانة من جراء هذه الحرب، ولكن الأمريكيين أيضًا لحق بهم الخزي. فقد تناقص انعدام الأمان لدى الأمريكيين بشكل تناقض مع كل مزاعم النصر التي طرقت الأسماع، كما أن الانتشار الكلي للعدو أنهك التماسك الذي كان يميزهم عند إرسالهم للحرب. ولذلك فلا ينبغي أن تراودنا الدهشة من أنهم يحاربون بلا رحمة وبشكل يؤدي إلى هزيمتهم. ومن الناحية الأخلاقية إذا لم يكن حقيقة، كانت الحرب في سبيلها إلى أن تصبح سجن أمريكا.

* * *

الحل هو المشكلة

٤ نوفمبر ٢٠٠٣م

إن الأحمق هو الذى يحدد مشكلة ما بطريقة ما تجعل حلها غير ممكن. كانت تلك هى كلمة التحذير للمفاوضين حول الحد من التسلح فى أثناء الحرب الباردة، ولكن يبدو الآن أنها صارت درسًا منسيًا. فعندما يحدد الرئيس بوش مشكلة الإرهاب بأن يقرر بتبسيط: «إذا لم تكن معنا، فأنت ضدنا»، فإنه يجعل حل هذه المشكلة المعقدة أمرًا مستحيلاً. وبإبعاد الحلفاء، وإدانة ما لا ينضمون لصفوفه، وفرض خيار«إما أو» على الناس الذين يرفضون ذلك، فإنه يلعب داخل أيدى الإرهابين. ففى العراق، يتزايد باستمرار عدد الناس العاديين، بمن فيهم من كرهوا صدام حسين، الذين يرون أن أمريكا عدوهم. إن الجنود الأمريكيين الستة عشر الذين قتلوا فى طائرة هليكوبتر منذ يومين هم آخر من دفعوا الثمن المأساوى لحماقة بوش.

وكذلك فى إسرائيل. آرييل شارون هو شريك چورج بوش الأصغر، ولكن عندما يتعلق الأمر بتحديد المشكلات بطرق تجعل الحل مستحيلاً، يكون شارون هو الأستاذ بلا منازع. ذلك أن إسرائيل مروعة من هجمات الانتحاريين بالقنابل، وهناك شعب يخاف حتى من معظم عمليات الحياة اليومية - فى الأتوبيس وفى المقهى - قد وضع رهن رد الفعل المتطرف. وما أن يتم تجربة الصراع على أنه صراع من أجل البقاء، فإن الفضائل العامة مثل ضبط النفس، والاعتدال، بل وحتى التعاطف مع الأبرياء على الجانب الآخر، يمكن أن تهرب من النافذة. إما نحن أو هم. وأولئك الذين يحكمون على إسرائيل دوئما شفقة الآن يخفقون فى فهم الحقيقة الوحيدة الأهم من غيرها فى تجربة الإسرائيليين - وهى الخوف الجذرى، ليس على أنفسهم وأولادهم شخصيا فحسب ولكن أيضًا على بقاء وطنهم نفسه. ولم يظهر قائد فلسطينى حتى الآن على استعداد لأن يقول بصوت عال إن مثل هذا الخوف الإسرائيلى هو مشكلة الفلسطينيين، وليس هو الحل الفلسطينى.

وإذا بدا أن الفلسطينيين، بما فى ذلك الذين لا يستخدمون الانتحاريين من بينهم، قد رضوا بهذا الخوف الإسرائيلى، فإن الأمر يصدق بنفس القدر على مخاوفهم. فالفلسطينيون الخائفون، أيضًا، تحت رحمة «نحن أو هم» وربما ترفض الجمهرة العريضة من السكان الانتحاريين نظريًا، ولكن صمتهم إزاء الحقيقة يدعم فى الخفاء

عدم استعداد السلطة الفلسطينية لتحدى المتطرفين المتشددين. والمشكلة هى، حسبما هى عند العدميين الفلسطينيين، جعل الحل مستحيلاً. وأى حركة مقاومة وطنية تعتمد على الأفراد الانتحاريين لا يمكن إلا أن تنتهى بانتحار الأمة.

وفى الوقت نفسه أدت سياسات حكومة شارون إلى تجنيد المزيد من الانتحاريين للعمل ضد إسرائيل بدلاً من ردعهم. فقد جعل شارون من إسرائيل مكانًا أخطر كثيرًا اليوم ومكانا مثقلا بأعباء غير عادية غداً. وكما هو الحال مع بوش عاد تحديد شارون للمشكلة بالوبال عليه. وترد الأخبار الآن بآلة حرب إسرائيلية جديدة - بلدوزر يعمل بالريموت كنترول. والبلدوزر الذى يستخدم لتدمير منازل الفلسطينيين المرتبطين بالإرهاب كان بالفعل رمزًا للسياسة المضطربة التى تعتمد العقاب الجماعى. وبمثل هذه البلدوزرات التى لا يقودها الإنسان، لن يواجه الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يقومون بتشغيلها خطر الانتقام ردًا على الهدم. ولكن أى مشكلة تلك التى يمثل البلدوزر حلاً لها؟

كيف يمكن للفلسطينيين القرويين أن يروا فى مثل هذه الآلة أى شىء غير وحش مرعب؟ وكما لو لم تكن الحرب سيئة بما يكفى، فإن هذا التجريد الزائد من الصفة الشخصية لها يجعلها أسوأ - ولا بد أن تصعد الخوف الذى يغذى العنف. والحرب التى لا يخوضها أشخاص تصبح هى مبرر ذاتها. أما الفلسطينيون الذين يواجهون الهدم من آلة لا وجه لها، فسيكونون تحت رحمة الكراهية التى تحكم فكر الجماعة أكثر من ذى قبل. والإسرائيليون الذين تفصلهم مسافة عن العمل الفعلى لآلة مصممة لهدم المنازل ومزارع الزيتون، سوف يتجنبون باطراد الأسئلة المزعجة التى لا بد وأن يثيرها هذا التكتيك. وكذلك مع «سور الأمن» الجديد الذى بنته إسرائيل بهدف حجز الإرهابيين خارجه، ولكن أيضًا جعل الإسرائيليين بمنأى عن المعاناة الفلسطينية التى تزداد سوءاً، والتى يضيف هذا السور مزيداً إليها.

وإذا كانت المشكلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين تتحدد من كل جانب على أنها مجرد وجود الآخر - فلا يوجد حل. وعلى نفس المنوال إذا كانت أمريكا تحدد عدوها على أنه أى أحد«ليس معنا»، على حد تعبير الرئيس بوش فإننا على طريق موحش لا يؤدى إلى أى مكان. والآن، ومع كون الرئيس بوش لديه فى العراق الضفة الغربية الخاصة به، فإن إسرائيل وواشنطن تجدان أنفسهما على نفس الطريق المميت، بدون خريطة.

وفيما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، يوجد أمل العثور على طريق جديد. وهذا هو مغزى ما يسمًّى اتفاقيات چنيڤ التى بنيت على الاتفاقية القريبة فى سنوات حكم كلينتون، والتى كتب عنها أخيرا الزعيم الإسرائيلى عمرام ميتزنا. إن حركة السلام فى إسرائيل ليست ميتة، ويمكن سماع الأصوات الفلسطينية وهى تدين الإرهاب وتصل إلى تسوية. والآن يجب على كل من الجانبين أن يعيد تحديد المشكلة بطريقة تجعل حلها ممكنًا.

يوم للتذكر

١١ نوڤمبر سنة ٢٠٠٣م

يوم المحاربين، فى كندا، يسمى يوم التذكر. ففى هذا اليوم سنة ١٩١٨م، انتهت الحرب العالمية الأولى، وتمت تنحية اليوم جانبًا، أولاً لتكريم ذلك الجيل الهالك من الرجال الذين سقطوا فى غياهب الخنادق. وسرعان ما صار يوم المحاربين القدماء، فى الولايات المتحدة، يوما لتذكر كل الأمريكيين الذين فقدوا حياتهم فى الحرب وكذلك أولئك الذين خدموا دفاعًا عن بلادهم. واليوم، وبشكل مناسب تذهب صلوات الأمة إلى المقابر الوطنية، كما تتجه أفكارها إلى أولئك الذين يرتدون الزى العسكرى. ونحن نحمل فى قلوبنا، بصفة خاصة الشباب من الرجال والنساء الذين يخدمون فى العراق. وأيا كانت الأعباء الأخلاقية والسياسية للحرب، ومهما كان حجم النزاع الذى يدور حول قرارات قيادة البلاد، فإن الناس فى الخدمات المسلحة يستحقون أن يشعروا بامتنان مواطنيهم. واليوم نحن نتذكر جنودنا فوق كل شىء.

ولكن فعل الذاكرة يمكن أن يكون أكبر. ونحن يمكن أن نتذكر بنفس القدر ما فعلته تجربة الحرب العالمية الأولى بضمير البشرية. ذلك أن ما حدث من موت بفعل الآلة على نحو غير مسبوق فرض إدراكًا جديدًا على الرجال والنساء بأن الحرب لم تعد أمراً يمكن التسامح إزاءه. وفى سعيهم الحثيث لتجنب أى حرب مستقبلية، قاموا بالخطوة الأولى لبناء نظام اجتماعى جديد. واختفت الإمبراطوريات القديمة، وتم تبنى ترتيبات سياسية جديدة، وصار إيجاد بدائل للعنف أولوية عالمية.

وبعد«ترضية» ميونيخ، اعتبرت هذه الدفعة المثالية بمثابة غلطة. إذ إن هتلر وستالين استغلا ميراث ١١ نوڤمبر ١٩١٨م الناعم. وكانت الحاجة الملحة لإيقاف كل منهما قد

اتخذت منذ ذلك الحين دليلاً على أن حلم السلام بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن غير واقعى فحسب وإنما كان غير مسئول.

ومع هذا، فإنه فى يوم التذكر، ربما نعاود السؤال. فقد كان جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى عاقداً العزم على ألا يرسل ثانية زهرة الشباب فى أتون الدمار. وبعد الحرب العالمية الثانية، التى حل فيها تدمير المدن وغرف الغاز محل الخنادق رمزاً للشر، أعادت الأمم المهزومة اختراع نفسها بوصفها شعوبا مسالمة، بل إن المنتصرين عولوا على أن يتركوا الحرب وراءهم. وقال الرئيس كنيدى للأمم المتحدة «يجب القضاء على أسلحة الحرب قبل أن تقضى علينا».

ولكن الرؤية لم تتحقق مرة أخرى. ففى أمريكا، كان ثمة اهتمام مفتوح بهذه الأسلحة، تم تبريره بالتهديد من جانب أبناء ستالين، وهو ما أدى ليس فقط إلى تحديد غرض قومى رئيسى ولكنه أيضًا غير معنى التحركات السياسية، وربط الجامعات بنظرية الحرب ومخصصات الدفاع، وخلق اعتماداً اقتصاديّا لا يمكن كسره على التصنيع العسكرى. ثم انتهت الحرب الباردة، وبدا أن العالم كله مستعد أخيرا لتأسيس سلام واقعى يمكن الركون إليه. وبدا أن سلامًا نهائيّا «نافعًا» على وشك أن يتحقق.

وما تزال واشنطن وحدها، من بين القوى العظمى، ترى الحرب أمرًا ذا معنى، وترى فى الاستعداد للحرب أولوية. والپنتاجون الذى لا عدو له الآن مصر على أن يبقى إلى الأبد على«رهان» ترسانته النووية، كما أن البيت الأبيض، وبخاصة تحت قيادة چورچ دبليو بوش، قد استبدل حلم النظام العالمى القائم على أساس الاتفاق الديپلوماسى بفكرة السلام الأمريكى Pax Americana القائم على أساس السيطرة الكاملة.

فى يوم التذكر انظر إلى ما تم نسيانه. رؤية واشنطن للعالم، تكرر الرؤية البروسية الإمپريالية للعالم منذ مائة عام مضت، وتتعامل مع التجلى الرئيسى فى القرن العشرين كما لو كان لم يحدث. وكما لو أنه لم تكن هناك دروس تعلمها الناس فى خنادق الفلاندرز، حرائق درسدن وطوكيو، ودمار هيروشيما وحروب الفلاحين التى لا تحصى والتى أطاحت بالقوى وحروب الإبادة التى ضحت بشعوب كاملة لحساب الوجوه الوحشية من الحقيقة.

وبالفعل نجح أكثر الدوافع الإنسانية إثارة للسخرية فى مجال البحث عن طريق آخر

عندما سقط الاتحاد السوفييتى من الداخل، ولكن ذلك أيضا تم نسيانه فى واشنطن التى تفضل أن تفكر فى نفسها بوصفها المنتصرة فى الحرب الباردة. وطقوس التذكر كلها عسكرية، وما تزال قيم الحرب توضع بشكل تجعلها تبدو نبيلة ومشرفة. واأسفاه فهناك جيل جديد من الشباب يتغذى على ذلك الكذب ـ وفيه. وكون أن جدول خدمة قتلى حرب أمريكا تتم إضافته إلى يوم المحاربين القدماء يجب أن يثير ضمير الأمة.

بدأنا بالتفكير فى العراق، وننتهى هناك أيضًا. إذ تعود التقارير بأن كثيراً من الجنود الأمريكيين ليست لديهم تجهيزات كافية وحماية قاصرة، ولكن انكشافهم للخطر أسوأ من هذا. إنهم يفتقرون إلى حماية سبب واضح وعادل. وأعداؤهم يتزايدون فى سحابة السموم التى خلقتها إساءات بوش الغاشمة. لقد وضع بوش جنود هذه البلاد فى موقف مستحيل دونما سبب وجيه. هذه الخيانة للشباب هى خيانة للمسنين أيضا. إذ إن حرب بوش تحجب ما رآه أبطال القرن الماضى عندما رأوا من خلال الحرب، وتخون ذكرى المستقبل البديل الذى رأوه بشجاعة ـ السلام ـ وهو المستقبل الوحيد الذى يمكن أن يكون هناك.

***

نوڤمبر كنيدى

١٨ نوڤمبر ٢٠٠٣م

جاءت ريح الشمال الباردة، وتسقط الأيام فى الظلام قبل أن تأخذ حقها فى الاستمرار. والآن يبدأ الموسم الذى جعل البشر فى البداية يخافون السنة. إذ إن دوران الأرض وثوراتها تحدد الحدود الصارمة للوجود، وضبط الضوء والدفء، وما يزال الفهم المباشر لهذه الحركات غير ممكن حتى الآن. والواقع، أن مفهومك اليومى ـ أن الشمس هى الشيء الذى يتحرك من الفجر إلى الغسق ـ لا يمكن الاعتماد عليه، أو هكذا يخبرك العلم. والآن فإن الدليل الموسمى مربك بنفس القدر. وفى المناخ الشتوى هذا هو الوقت الذى يظهر فيه ما يبدو تراجعًا للشمس. بيد أن هذا فقط هو قوس دوران الأرض. لا يهم. وبينما تحولت الأوراق الخضراء النضرة ذات مرة إلى اتباع مسار الشمس فى السماء (فالأوراق تصدق أنها تتحرك)، كذلك فإن روح الشتاء توائم نفسها مع الظلام.

وكذلك الحال أيضا مع ما يثيره التقويم من مشاعر . وفى أمريكا ، تستعد للاحتفال بالذكرى السنوية الأربعين لموت چون ف . كنيدى ، الذى انتهك كل قوانين الطبيعة فيما عدا قانون هذا الفصل من فصول السنة . كان له أريج مقدس بيد أنه لم يكن إلهًا . إلا أن موته لم يحظ بتوضيح . وكان يمكن للآمال التى ارتبطت به أن تخبو وتختفى فى نوڤمبر فقط ، أو هكذا كان الشعور السائد .

ما الذى فى كنيدى بحيث جعله يبدو مصدراً للضياء؟ أنت تعرف الآن أى رياح باردة تمرق من خلال عظامه ، بحيث تجعله هشّا مع التظاهر بحماية الذات . إنه يبدو أيقونة للنضج الذكورى إلا أنه سرّا تسابق إلى الساعة دائمة الدقات للرغبة الجنسية المراهقة . فقد عرف مخاطر الحرب من تجربته الخاصة إلا أنه جعلها تتفاقم بلا نهاية عندما أطلق سباقًا صاروخيّا شريراً . كان مريضا ، على حين كان يبدو أتم الرجال صحة . كان فطنًا ، مع ابتسامة دائمة ، ولم يكن هو نفسه قط فى أي لحظة أكثر من اللحظة التى يتأمل فيها وحده . أنت تصوره دائما على شاطئ كيب كود ، وقد تم تصويره من الخلف ، ورأسه منحن ، يمشى متثاقلاً على الرمال ، وقد لبس الكاكى ـ والآن فقط يطرأ على بالك أن ذلك ، أيضا ، ربما كان شهر نوڤمبر ، فى عطلة عيد الشكر .

والشيء الغريب هو ، أنه كلما انتشر أريج الأسطورة ، زاد ظهوره بمظهر الإنسان وبشكل لا يمكن مقاومته . وكلما زاد غموض تراثه ، اشتدت قبضته على مشاعرك ، وولائك ، وفى قمة تواضعك ، تبقى واحداً من أطفال كنيدى . ففيه رأيت أكثر مما عرفت ، أنك كنت تراه فى ذلك الوقت . إمكانية الطراز العام ـ والخاص ـ نعم ، ولكن أيضًا ، حسبما ظهر ، إمكانية الالتزام الدائم ، الحل المتشدد فى الحرب الباردة ، نعم ـ تلك الصواريخ ـ ولكن أيضا دفعة نحو طريق آخر . وعندما تبدى ذلك الطريق واضحًا من خلال أمثال ليخ ڤاليسا وفاكلاف هاڤيل ، ألم يجسدا هما ، بحساباتهما الخاصة ، شيئا كان يومض قبل زمن طويل فى كنيدى أيضا؟

هل كان يمكن لسيطرته على خيال جيل عالمى ، حسبما يقول البعض ، أن تكون ناتجة فقط عن أنك فقدته فى شبابه؟ ولكنك ترد بالنفى ، إن الأمر أكبر من ذلك . فحتى فى عز حياته ، التى كانت الزهرة الأولى فى حياتك ، أشار إلى تجلى مملكة من التجربة

التى حكمت الظروف على السياسيين أن يبتعدوا عنها. لقد أقام مناقشته من أجل السلام وضد سباق التسلح ليس على أساس مصطلحات الجغرافيا السياسية وإنما فى ضوء المصطلحات الإنسانية. «لأنه فى التحليل الأخير، فإن الرابطة الأكثر عمومية لدينا هى أننا جميعا نسكن فى هذا الكوكب الصغير. ونحن جميعا نتنفس الهواء ذاته. وكلنا فانون».

كان كنيدى وهو ينطق هذه الكلمات فى الجامعة الأمريكية قبل شهور قليلة من موته المفاجئ له ـ ولك ـ يخاطب بشكل واضح عدو الولايات المتحدة، وفى موسكو أخذت كلماته على أنها كلمات غير مسبوقة. فللمرة الأولى، يقوم رئيس أمريكى بالربط بين أمة خائفة، وإن كانت محاربة ـ محاربة لأنها خائفة ـ ومجموعة من البشر. الكل فان الكل خائف، والكل يتطلع إلى روابط جديدة، وأنت فكرت حتى فى ذلك الوقت أن ما قاله كنيدى ربما يساعد؛ لأنه كان الطريق الذى أوصله تمامًا إليك. وقد أظهرت الحوادث ـ فقد جاءت معاهدة الحظر الجزئى للتجارب النووية بعد ذلك مباشرة، وكان يمكن لعدة معاهدات مماثلة أن تنقذ العالم ـ إن كنيدى قد حرك الدفة عبر الريح وغيَّر مجرى التاريخ. لقد أعطى كنيدى ليخ ڤاليسا فرصته.

إن ما حدث فى نوڤمبر منذ أربعين سنة مضت أقر إلى الأبد ما تعرفه بالفعل. الريح الباردة. الضوء الشاحب. الخطر اللانهائى للحياة العسكرية على الأرض. إمكانية فناء العالم التى هى مصدر غير متوقع للأمل. والحزن بوصفه مصدراً للسلام على نحو غريب. الموت ليس فخرا. وعندما يتحول الطقس، فأنت تذهب إلى الداخل بحثًا عن أولئك الذين تحبهم. هذه هى ملاحظات العالم كما هو. ملاحظات العالم، بالتالى، كما تريدها بالضبط.

* * *

عن الشكر والرحمة

٢٥ نوڤمبر ٢٠٠٣م

فى وقت عيد الشكر منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت ـ عندما كنت قسّا كاثوليكيا فى جامعة بوسطون ـ ألقيت موعظة أخرى عن شرور الحرب الأمريكية فى ڤيتنام وربما

حملت على النزعة الاستهلاكية فى الولايات المتحدة، أيضا، مع لطمة ضد حجاج «مزرعة پلايموث» الذين خانوا ماساسويت، زعيم الوامپانواج، الذى علم الأوروپيين كيف يصيدون تلك الديوك الرومية. وبعد القداس وبختنى أستاذة كنت معجبًا بها. وإذ تحدثت عن الطلبة الذين كانوا هم جمهور هذا القداس، قالت: «إن الأولاد المحاصرين لا يحتاجون إلى رحلة ذنب أخرى منك، إنهم بحاجة إلى من يذكرهم بأن حياتهم مليئة بالأشياء الطيبة يمكن أن يكونوا شاكرين بسببها».

إننى أفكر فى تلك الأستاذة الآن، وفى أولئك الطلاب. والوعظ ليس هو غرض هذا العمود، ولكننى واع لضرب طبول الحرب التى يشنها الرئيس بوش كموضوع يستحوذ علىَّ. إن القتلى من جنود الولايات المتحدة فى نهاية الأسبوع قد زادوا، وهم الآن قد شوهوا. ومزيداً من الإرهاب العالمى على حين تنتشر ضربة الرد. مزيداً من المعارضة فى الخارج. ولكن فى عيد الشكر ألا يمكن لكاتب العمود أن يتوقف؟ الحرب، الحرب، الحرب. وماذا عن كل الأشياء التى يمكن للأمريكيين أن يكونوا شاكرين من أجلها؟

إن عيد الشكر يقترب هذا العام، كيف يمكن لنا أن نقوى الدافع لكى نحتفل ببهجة الحياة، بمسئولية المواطن الرصينة لقياس المسار الذى انطلقت فيه حكومتنا، وأن نحسب حساب محاذير المياه الأكثر خشونة أمامنا؟ فى عيد الشكر، نعم، نقف لكى نتأمل فيما أعطى لنا، ولكننا أيضا نقيس ما نفعله بوفرتنا. لقد حان الوقت للحساب الأخلاقى.

هل يمكن أن نكون شاكرين للوفرة فى وطننا بدون أن نؤكد الفكرة المدمرة بأننا نحن الأمريكيين باركهم القدر على نحو ما أكثر من الآخرين؟ ومنذ زمن الحجاج (المهاجرين الأوائل) فصاعداً، كان عيد الشكر احتفالاً بالانتخاب الأمريكى، وهو ليس عبارة عن موعظة عابسة بإحساس الخطر الكامن فى ذلك. وباسم هذا الاختيار (الذى فطن الأمريكيون إلى أنهم يحظون به) تم استئصال شأفة شعب ماساسويت فى نهاية الأمر.

ونحن نحتفى بعيد الشكر لأنه على عكس الأعياد الأخرى لا يفصلنا بعضنا عن بعض. وثمة روح عامة من الامتنان توحد شعبا متنوع الأعراق فى السر الذى يكمن وراء كل طقس من الطقوس أو شعيرة من الشعائر، ولا يندفع أحد لكى يضع اسمًا

قانعًا لمن يوجه إليه الشكر . إلا أن الافتراضات الدينية المانعة تسرى تحت العيد، كما أنها تسرى تحت الوطن، كما تدفعنا إلى أن نكون واعين لمضامين تلك الافتراضات. وعندما يتم شكر «الرب» بشكل روتينى لأنه «يبارك» أمريكا ـ لأنه جعل أمريكا ذات خصوصية، أى لأنه «اختارنا» ـ فهل نستطيع فى الوقت نفسه أن نؤكد على أن أعظم هبة تتمثل فيما نشارك فيه الأسرة الإنسانية، وليس ما يفصلنا عنها؟ هل يمكن أن نشعر بالامتنان دون أن نشعر بأننا ظافرون؟ أو بعبارة دينية، هل يمكننا أن نشكر الرب دون أن نزعم زعمًا امتلاكيا للرب، كما لو أن حظنا الطيب يتحدد بالمصائب التى تتنزل على غير المختارين؟

ربما ما قصدت أن أقوله لطلاب جامعة بوسطون طوال تلك السنوات الماضية هو أننا يجب أن نفعل شيئين، بدلاً من شىء واحد. نعم نحن لدينا الكثير مما يستوجب أن نكون شاكرين. حياتنا، عالمنا، كل منا، اليوم نفسه. إن عيد الشكر هو العيد الذى نفرح فيه كثيراً. ولماذا لا يجب أن تكون قلوبنا عامرة؟

ونعترف بهذا، نعم، إن قلوبنا، بنفس القدر، مضغوطة بالقلق الشديد. إن إدارة بوش تريدنا أن نتجاهل الثمن الإنسانى للحرب. إن الحكومة لا تكاد تعترف بالقتلى من جنودنا وتمضى كما لو أن القتلى العراقيين والأفغان أقل قيمة. والواقع أن البنتاجون فى غروره لا يحتفظ بأعدادهم. بيد أن الأمريكيين يعرفون أن هناك أماكن خالية على موائد عيد الشكر هذا الأسبوع، وأن نهاية رمضان للعائلات المسلمة التى لا يتناولها الإعلام فى بلدين هى بنفس القدر وقت للحزن. ومن أجل ماذا؟ فى الأسبوع الماضى قدم چورچ دبليو بوش وتونى بلير مسوِّغات لحربهما ـ الديمقراطية ـ لا علاقة لها بالمسوغات التى قدمت فى مارس الماضى ـ «الحرب الوقائية». أليس من المفترض أن نلاحظ ذلك؟ وماذا بعد عدة شهور من الآن، عندما يكون غرض الديمقراطية أيضا قد فشل وخبا؟ هل نخوض الحرب من أجل متعتها؟

وسواء جاءت الديمقراطية إلى العراق وأفغانستان أم لا، فإن هذا يحدد ما تدين له أمريكا بالعرفان أكثر من غيره فى عيد الشكر. ولكن الديمقراطية تعنى أن المواطنين مسئولون عن تصرفات الحكومة وأفعالها. إن حرب بوش تنتمى إلينا جميعًا. هناك

رحلات ذنب، بعبارة أخرى، ولكن هناك أيضا فحوصات لا بد منها للضمير. إن الأفكار الأخلاقية المتأنية تطرح نفسها بقوة علينا. إذا كنا محبوبين من الرب، فكذلك عدونا الذى نكرهه. وكون أننا نحن بنى آدم، كلنا باسم الفضيلة، قد انحدرنا إلى أن نقتل بعضنا بعضًا. مرة أخرى يظهر أن صلوات الشكر يجب أن تكون بنفس القدر صلوات الرحمة. ودائمًا صلوات التوبة.

***

لماذا لا يأتى السلام؟

٨ ديسمبر ٢٠٠٣م

لماذا يصعب صنع السلام على هذا النحو؟ فى أيرلندا الشمالية، عادت دعوة «إيان بيسلى» للموت الصعب، وحاز السلطة مرة أخرى لكى يلقى بالعقبات أمام حل الصراع البروتستانتى الكاثوليكى الذى طال الشوق إلى حله. وعلى الرغم من الاستعداد الأيرلندى المهيمن للصلح، فإن التطرف المرير ما يزال قادراً على تسميم المستقبل. وعندما يظهر المواطنون العاديون فى فلسطين وإسرائيل إمكانية الاتفاق باللجوء إلى ما يسمى اتفاقيات چنيڤ، فإنهم يعاملون بوصفهم مصدر أذى من كلا الجانبين. وعندما يصم مائة من الشخصيات العسكرية الإسرائيلية ـ رئيس جيش، وثلاثة رؤساء سابقون فى خدمة الأمن، وضباط من القوات الجوية ـ سياسة آرييل شارون بأنها تؤدى إلى هزيمة الذات، يتم استبعادهم بوصفهم «ناعمين» بل إنهم قد يدانون بحسبانهم خونة، كما لو أن الولاء لإسرائيل يتطلب الإخلاص للحال الراهنة التى لا تحتمل. وفى الوقت نفسه، فإن الفلسطينيين الذين يسعون للتوافق مع إسرائيل يخافون على حياتهم بسبب بعض بنى جلدتهم.

وفى أمريكا، توجد صعوبة صنع السلام فى سياق مختلف. فعند نهاية الحرب الباردة، عندما اختفى العدو الذى حددت الولايات المتحدة نفسها ضده، فإن المؤسسة العسكرية لهذه الأمة برهنت على عدم استعدادها أو عدم قدرتها على التغيير. ولأن البنتاجون استمر يتصور عالـمًا من التهديدات المميتة، فقد بقيت مستويات من الاستثمار فى نظم الأسلحة ـ بما فيها الأسلحة النووية ـ عالية بدرجة غير عادية وما نتج

عن ذلك من أن القدرة العسكرية الأمريكية قد أصبحت لا تبارى بالمعنى الحرفى للكلمة. ومجرد امتلاك مثل هذه القوة، حينما لا تجاريها قوة أخرى، يحمل معه دافعًا لا يقاوم تجاه استخدامها، وهو ما يفسر إلى حد كبير السبب فى أن الولايات المتحدة الآن تذهب إلى الحرب حتى عندما لا تكون هناك ضرورة لذلك.

والعراق، بطبيعة الحال، يوضح أمرين خاطئين فى هذا الموقف. أولهما أن تصور التهديدات التى تسوغ مثل هذه الافتراضات العسكرية لا يضرب بجذوره فى أرض التهديدات الفعلية (ليست هناك أسلحة عراقية للدمار الشامل) وإنما فى أرض الحاجة المسبقة إلى تسويغ هذه الافتراضات، طالما أنها تستهلك مثل هذه الأموال الطائلة وطالما أنها مصدر لمثل هذا القدر الكبير من المعنى الوطنى. وثانيهما، فإنه حتى التفوق العسكرى الذى لا يبارى، لا علاقة له بكسب القلوب والعقول ـ الذى هو دائما الهدف النهائى للحرب. وكلما زاد سحقنا لأولئك الذين يكرهوننا، زادت كراهيتهم لنا، وزاد عدد الكارهين. ويوضح العراق أن قوة النيران الأمريكية هى بالضبط التى تخلق أعداء أمريكا.

وفى الأسبوع الماضى تم رفع الستار عن السبب الأساسى لهذا الموقف المدمر. فقد انكشف بوضوح، وإن كان باختصار، السبب الحقيقى فى أن الپنتاجون استمر متعلقا بفكر الحرب الباردة حتى بعد ذهاب الاتحاد السوفييتى، تمامًا مثل المصدر الجذرى لسياسة الحرب التى اتبعها چورچ دبليو بوش. فقد مضى أمس أسبوع على الاستقالة المخجلة لفيليب. م. كونديت من شركة بوينج العملاقة لصناعة الطائرات. وفى الأيام السابقة على هذا العار، كانت بوينج قد اعترفت بأن عددًا آخر من كبار موظفيها قد ارتكبوا انتهاكات أخلاقية ـ إذا لم تكن انتهاكات قانونية ـ فى عقد قيمته عشرون بليون دولار مع القوات الجوية الأمريكية لبناء أسطول جديد من الطائرات ناقلة الوقود. وتم فصل المدير المالى الرئيسى وأحد نواب رئيس الشركة، مما تسبب فى أن يبدأ وزير الدفاع دونالد رامسفيلد تحقيقاته الخاصة.

ولكن الفضيحة لم تكن قاصرة على بوينج. إذ إن مشروع ناقلات الوقود الهائل النفقات كان تحت رعاية ريتشارد پيرل مع آخرين، وهو أحد المقربين من رامسفيلد والرئيس بوش. كما أنه استفاد فى العام الماضى، حسبما أوردت صحيفة نيويورك

تايمز، من استثمار قدره عشرون مليون دولار استثمرتها بوينج فى الشركة المالية التى يرأسها. وفضلاً عن ذلك مضى مشروع الطائرات قدمًا بدعم من كابيتول هيل، أمنه أعضاء اللوبى المؤيد لبوينج والمساهمون فى الحملات الانتخابية. وفى سنة ٢٠٠٢م تلقت بوينج عقودًا بما يقرب من عشرين مليونًا، على حين أنفقت أربعة ملايين على أعضاء اللوبى وحوالى مليونين لمساعدة المشرعين الأصدقاء على الفوز فى الانتخابات.

وقد جادل المنتقدون من أمثال چون ماكاى (عن أريزونا) بأن القوات الجوية لا تحتاج إلى طائرات جديدة على الإطلاق، ولكن بوينج التى تتعرض لضغوط صعبة كانت بحاجة إلى الأعمال، وأن القوات الجوية تعتمد على مثل هده الدورات التى لا نهاية لها من الإنفاق الضخم. وإذا كان هناك أسطول جديد من طائرات نقل الوقود، فهل يمكن أن يكون هناك أسطول جديد من قاذفات القنابل التى تخدمها آت بعد فترة طويلة؟ وليست المسألة ببساطة هى ما إذا كانت هناك حاجة فعلية حقيقية عالمية لأى من هذا. ولا يتحدد وضع أمريكا العسكرى العالمى بالمتطلبات الحقيقية للأمن القومى، ولكن بمدى الربح الذى يحققه المقاولون وموظفو البنتاجون، والسياسيون والجماعات المؤيدة لوزارة الدفاع. والإهدار الواضح فى هذا الفساد الكامن إهدار هائل، ولكن المشكلة الأخطر تتمثل فيما يؤدى إليه فى العالم. ما أدت إليه فى مدن العراق المكسورة.

لم يصعب إرساء السلام إلى هذا الحد؟ فى أماكن مثل أيرلندا الشمالية والشرق الأوسط، تدور الإجابة حول مشاعر الحزن والجراح التى لا تغتفر والمخاوف التى لن تنتهى. ولكن فى الولايات المتحدة، فإن الإجابة أكثر خشونة بكثير. ليس الحزن، أو الأذى، أو الخوف. وأسفاه، إن الإجابة هى المال. إذ تبقى الحرب هى القاطرة التى تقود اقتصاد أمريكا ـ ومن ثم تقود سياساتها وكبرياءها الشاحب.

* * *

الأسرى: صدام حسين وهيروشيما

١٦ ديسمبر ٢٠٠٣م

توقفت أمريكا بسبب الخبر: تم القبض على صدام حسين ـ ليس فى نوع ما من

مخابئ القيادة، حيث يدير حرب العصابات، وإنما فى «حفرة عنكبوت» مع الفئران والجرذان. وعلى مدى اليومين ا لأخيرين، كان الاعتراض هو النغمة السائدة، على حين أنهى هذا الخبر التخمينات والافتراضات الدائرة حول الحرب فى العراق، والصراع الإسرائيلى الفلسطينى، والانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة، والأسواق المالية، بل وموسم التسوق. انتشر النبأ الطيب فى كل مكان، إذا كان بوسعك أن تصدق ردود الفعل الأولى. لقد تم وصف يوم ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣م بأنه يوم تاريخى بسبب الرجل الذى تمت جرجرته فى الوحل عندما وجد مختبئًا رعديدًا فى الظلام.

وهناك طائفة من الناس الذين فكروا فى صدام حسين بصورة خاصة فى تاريخه بوصفه قاتلاً على مدى فترة طويلة للأكراد والشيعة ولذلك عدوا ذلك يومًا للاحتفال ـ من العابرين ببغداد إلى جنود الولايات المتحدة، إلى هوارد دين إلى مراسلى التليفزيون وكُتّاب الافتتاحيات. وربما كنت سأقول ذلك أنا أيضا، فيما عدا الاجتماع الذى كنت آتيًا منه عندما وصلنى الخبر.

كنت قد أمضيت يوم ١٣ ديسمبر فى واشنطن فى مؤتمر تم تنظيمه للاحتجاج على معرض متحف سميشون الجديد للطيران والفضاء الذى تم افتتاحه أمس. فقد كانت القطعة المركزية بالمتحف هى Enola Gay وهى الطائرة B-29 التى أسقطت القنبلة الذرية على هيروشيما. ففى سنة ١٩٥٥م، تسبب معرض سابق فى غضب المحاربين القدماء ورابطة القوات الجوية لأن أمناء المتحف قد قدموا «سياقًا» يوحى بأن قرار الرئيس ترومان باستخدام هذا السلاح لم يكن محل جدل، حتى فى وقته. (فقد كانت معارضة أيزنهاور واضحة). وتم إلغاء ذلك المعرض بشكل مفاجئ.

أما المعرض الذى افتتح أمس فلا يقدم سياقًا لعرض طائرة Enola Gay. ولا حتى الضحايا الذين أوقعتهم (أكثر من مائة وأربعين ألف قتيل). إن الطائرة معروضة، وقال المدير الحالى للمتحف: «بكل مجدها بوصفها إنجازًا تكنولوچيا عظيمًا». واحتجت مجموعة من المؤرخين على مثل هذا العرض الاحتفالى، ببيان اجتذب مئات من التوقيعات المؤيدة من العلماء. وفى يوم ١٣ ديسمبر اجتمع أكثر من عشرة منهم مع كثير

من اليابانيين الذين نجوا من القصف الذرى. والمسألة هى بناء التاريخ وإعادة بنائه، وهو سؤال لايتعلق بالماضى فقط، ولكنه يتعلق بالحاضر والمستقبل. وإذا كانت أمريكا تتذكر أول استخدام لها للأسلحة النووية بوصفه مسألة غير معقدة أخلاقيا - والأسوأ من هذا بوصفه حدثا يستحق الاحتفال - فإن التزامها الحالى بترسانة نووية ضخمة واستعدادها المستقبلى، فى ظل سياسات بوش، لبناء أسلحة نووية «يمكن استخدامها» سوف يبدو أمرًا مقبولاً.

وفى مسألة كيفية فهم القبض على صدام حسين أيضا، هناك عملية بناء التاريخ وإعادة بنائه. إذ لا يجب السماح لميلودراما القبض عليه أن تحجب حقيقة أن صدام حسين، فى هذه النقطة من الحرب، لم يعد هو الموضوع الحاسم منذ فترة طويلة. لقد كان صدام حسين طاغية دمويًا يجب إدانة جرائمه، ولكن أن نقيم حرب أمريكا فى العراق ومعناها، مع حسبان ذلك التسويغ الأساسى، لا بد وأن يبدو مثل تذكر يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥م فقط بالإشارة إلى الفظائع التى ارتكبها الجيش الإمبراطورى اليابانى. إن الولايات المتحدة لم تهاجم العراق بسبب شرور صدام. (فالعالم يغص بالطغاة الأشرار). لقد فعلت ذلك لأن صدام حسين كان يشكل خطراً وشيكا على جيرانه، وعلى أمريكا. ولم تكن هناك طريقة أخرى لوقف ذلك التهديد. وبالإضافة إلى ذلك، ربطت واشنطن صدام حسين بالحادى عشر من سبتمبر (واللقاء بين القاعدة والعراق فى براغ)، بحيث جعلت الحرب ضد العراق ضرورية للحرب على الإرهاب.

من الواضح بالفعل أن هذه المسوِّغات كانت زائفة. وحتى إذا كشف صدام حسين الآن عن كم من العملاء الكيميائيين أو البيولوجيين، فإن سؤال «الخطر الوشيك» سوف يبقى لأن التحقيقات التى أعقبت الغزو كشفت عن أنه لا وجود لعملاء مسلحين كانوا جاهزين للاستخدام. أما عن علاقة صدام حسين بالحادى عشر من سبتمبر (أى مقابلة فى براغ؟)، فقد انكشف أنها فانتازيا خيالية.

إن الحرب فى العراق نتيجة لأجندة أمريكا أكثر من كونها ناتجة عن أجندة صدام حسين. والعنف فى العراق (تفجيرات قنابل كثيرة منذ القبض على صدام) نتيجة لأخطاء واشنطن الرهيبة فى الحساب. والتهديد من الإرهاب (كاد زعيم باكستان أن

يلقى مصرعه) قد ازداد سوءاً بفعل سياسات بوش. وبناء تحالفات أمريكا تم تقويضه بلا ضرورة (مما أدى إلى بعثة چيمس بيكر إلى عواصم العالم). ونزعة أمريكا الحربية المتطرفة يتم تقليدها في كل مكان آخر (إيمان رئيس وزراء إسرائيل آرييل شارون «بالقوة الساحقة») مما جعل العالم أخطر كثيراً. هذه المسائل لا يجب أن يتم التواطؤ لاستبعادها في وهج احتفال وسائل الإعلام بالقبض على صدام حسين. وحقيقة أنه تم القبض عليه في حفرة، مما يكشف بوضوح عن أنه لا علاقة له بحرب العصابات والمقاومة، هي نقطة فاصلة في أمور ليست مهمة الآن: لا تهم في إعادة النظام إلى العراق، ولا تهم في إعادة بناء هياكل القانون الدولي، ولا تهم في ضرب الإرهاب، ولا تهم في الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، ولا تهم في المصالحة بين الغرب والعالم الإسلامي.

هذا هو الدمار الناجم عن حرب بوش. في سبيل ماذا؟ إن السؤال حول حرب بوش وقرار ترومان باستخدام القنبلة الذرية هو السؤال نفسه: هل كان ذلك ضروريا؟ وحتى إذا كان بوش يأمل في أننا لن نسأل ذلك السؤال، فإن التاريخ سوف يسأل.

***

سنة في أمريكا

٣٠ ديسمبر ٢٠٠٣م

كانت هذه هي سنة الديمقراطية الأمريكية. إن قيم هذه الأمة لم تعرض على هذا النحو الدرامي للعالم من قبل. فقد باتت «الحرية» كلمة السر من «عملية الحرية العراقية» إلى برج الحرية القادم من أرض الصفر في نيويورك. وفي فترة الضغط الهائل، لملمت أمريكا نفسها، وحددت معتقداتها من جديد، وبدأت تضغط لفرضها على الآخرين. وتهدف واشنطن إلى نشر مفاهيمها عن النظام المدني والعدالة الاجتماعية في كل مكان، ولا أقل من هذا. ولماذا لا يكون المواطنون فخورين؟

بيد أن هذه الرؤية تلقى ظلالاً. إذ إن تناقضات المثالية الأمريكية قد تجلت أيضا بوضوح نادر هذه السنة ـ وليس فقط في الحروب بالخارج. لقد وقع حادث مؤثر في ماساتشوستس عندما كانت السنة تقترب من نهايتها. وهناك مجموعة محلفين مكونة

من الولايات القليلة نسبيًا التى لا تطبق عقوبة الإعدام بفرض هذه العقوبة مع ذلك فى جريمة القتل الفيدرالية ضد جارى لى سامبسون القاتل المتوحش لچوناثان ريزو وفيليب ماكلوسكى. وكما كان المحبذون لعقوبة الإعدام يأملون، فإن هذا القرار فى قلب جماعة ظلت فترة طويلة ترفض عقوبة الإعدام - كانت آخر حالة إعدام فى ماساتشوستس سنة ١٩٤٧ - سوف تسرع بعودة أمريكا إلى عدالة الحدود [يقصد تنفيذ أحكام القتل بدون قضاء عند توسع المهاجرين إلى الغرب].

وحتى فى فترة تجلت فيها عيوب عقوبة الإعدام مراراً وتكراراً، فإن اثنين من كل ثلاثة أمريكيين ما يزالون يؤيدونها. وألاحظ بشكل منتظم كيف أن چورچ دبليو بوش، بوصفه حاكم تكساس، قد اهتم بإعدام ١٥٢ شخصًا - وهو فخور بهذا. وكون أن الدماء التى سالت من هذه المجزرة على يدى الرئيس رصيداً سياسيًا يفضح كل شىء عن القيم الأمريكية السائدة. وعندما حدث ذات مرة أن عارض زعماء الديمقراطيين عقوبة الإعدام، فالآن، وحسبما يكتب برْيان مونى فى البوسطون جلوب، فإنهم (أى آل كلينتون، وجور، ودين، وكيرى وليبرمان وإدواردز، وجفهارد، وكلارك) يؤيدونها الآن. ومثلما تمضى ديمقراطيات العالم فى اتجاه واحد بشأن هذه المسألة، تمضى الولايات المتحدة فى اتجاه آخر.

هذا الاحتضان المروع للموت ليس إلا مجرد جزء من قصة العام عن الجريمة والعقاب، على الطراز الأمريكى. ففى أغسطس تم اغتيال مغتصب الأطفال چون جيوجان على يد سجين زميل له فى أحد سجون ماساتشوستس. وبينما كانت جرائم جيوجان قد أدت إلى الكشف عن إساءة استغلال أسرار الكنيسة الكاثوليكية، فإن العقاب الذى ناله أدى إلى الكشف عما يتضمنه «نظام القضاء الجنائى» فعلا فى أمريكا. إن المعاملة السادية من جانب الحراس يسمح فيها للسجناء بأن يفترسوا بعضهم بعضًا - هل هذه استثناءات أم أنها هى القاعدة؟ - فى أمريكا، ليس ثمة سؤال حول القبول المطلق بالتعذيب، وإشراف الولايات المتحدة على الديمقراطية فى الخارج يصرٌ على هذا (أو كان يصرٌ على هذا قبل الحرب على الإرهاب). إلا أن الولايات المتحدة، ونظام السجون بها، مع كثير من الحراس المسيئين والنزلاء الساديين الذين لا ضابط

لهم، يفترض فعلاً أن التعذيب جزء من العقوبة. وإذا لم يكن جيوجان مشهوراً بسوء السمعة، فربما كان قد لقى مصيره دونما ملاحظة من أحد.

ولكن السنة التى تنتهى الآن قد تركت علامات أخرى تجاه حسبان المعنى الحقيقى للديمقراطية الأمريكية. وفى أواخر أكتوبر، لاحظ المبجل روبرت موليجان، القاضى الإدارى الرئيسى فى ماساتشوستس، فى محاضرة له فى «فال ريفر»، خصائص القانون الجنائى الحالى فى الولايات المتحدة. فقد بلغ عدد نزلاء سجون أمريكا أخيرا مليونين للمرة الأولى، مما جعل الولايات المتحدة تسبق روسيا بوصفها عاصمة العالم فى الحبس.. وإذا أضفنا إلى ذلك العدد أولئك الذين تحت المراقبة، وإجمالى من هم تحت السيطرة «الإصلاحية» فإن العدد يصير سبعة ملايين. ومنذ ثلاثين سنة مضت، كان هناك واحد من كل ألف أمريكى فى السجن، أما اليوم، فحوالى خمسة من كل ألف مسجون. وفى ماساتشوستس الشهيرة بليبراليتها، زادت أعداد نزلاء السجون منذ سنة ١٩٨٠م من أقل من ستة آلاف إلى ما يقرب من ثلاثة وعشرين ألفا. وفى سنة ٢٠٠٣م، ولأول مرة، بلغت كمية النقود التى أنفقتها ماساتشوستس على السجون أكثر من إجمالى ما تم إنفاقه على التعليم العالى.

هذه الإحصائيات تراكم ثقلاً عقابيًا ينزل على الأمريكيين الإفريقيين الذكور أكثر من غيرهم، وحسبما قال القاضى موليجان، فإن واحداً من كل ثلاثة ذكور من الأمريكيين الإفريقيين ما بين سن العشرين وسن الثلاثين تحت «السيطرة الإصلاحية». وفى أماكن مثل بالتيمور وواشنطن، هناك أكثر من النصف يخضعون لهذا الإجراء. وعدد الرجال الأمريكيين الإفريقيين فى الكليات أقل من عدد أولئك الذين يخضعون لإشراف القضاء. ولماذا؟ إن مثل هذه الحقائق تكشف المزيد عن الطريقة التى تدار بها العدالة فى أمريكا بأكثر كثيراً مما تكشف عن الشخصية الأخلاقية لأى مجموعة. والقاضى موليجان، يشير إلى «الحرب على المخدرات» بحسبانها مفتاحًا، وهى حرب شاهدت معدل السجن لمن يتعاملون فى المخدرات يقفز بنسبة ٧٠٠ بالمائة منذ سنة ١٩٨٠م؛ فهى حرب تعتمد على فرض القانون من منظور ضيق وعلى أحكام السجن. وفى سنة ٢٠٠٢م كان ثمانون بالمائة من أولئك الذين يحكم عليهم بهذه الأحكام من أبناء

الأقليات. لقد صارت الحرب على المخدرات بشكل غير مناسب حربا على الشباب السود.

سنة ٢٠٠٣م: تم إطلاق عقوبة الإعدام. زادت أعداد نزلاء السجون. التعذيب الفعلى بوصفه جزءاً من العقوبة. نظام من القضاء العنصرى الذى ينافس العبودية. القيم الأمريكية عبر العالم. من فضلكم.

* * *

(١٦)

آلام الحرب

اليوم الذى فاز فيه چون كيرى بترشيح الديمقراطيين له للرئاسة، فى بواكير مارس، كان أشد الأيام عنفا فى العراق منذ نهاية الغزو، فقد تم قتل ١٨٥ مسلمًا شيعيًا على الأقل فى هجمات انتحارية بالقنابل فى بغداد وكربلاء بحيث وصلت بالعدد الإجمالى للمدنيين العراقيين الذين راحوا ضحية التفجيرات الإرهابية فى شهر واحد إلى أكثر من أربعمائة قتيل.

وقتل خمسة وأربعون آخرون من الشيعة على أيدى مسلحين مجهولين فى باكستان. وقد افترض أن الهجمات شنها السنة المتشددون، إلا أن زعماء الشيعة بادروا فى الحال إلى إلقاء جزء من اللوم بسبب العنف الجديد على الولايات المتحدة. وصرخ مشيعو الجنازات فى كربلاء «تسقط أمريكا».

وفى روسيا، كانت القوات العسكرية قد خرجت لتوها من أول مناورة واسعة النطاق على مدى سنوات، بما فى ذلك تمثيل هجوم نووى ضد عدو لم يحدد بالاسم لا يمكن أن يكون سوى الولايات المتحدة. وقد زادت نفقات الدفاع فى روسيا فى ظل حكم ڤلاديمير پوتين ثلاث مرات، حتى مع بقاء قواتها التقليدية فى حالة تقترب من الانهيار. فقد صارت القوة العسكرية الروسية محددة تمامًا بالأسلحة النووية، بيد أنه فى هذا المجال أيضا يبدو أن قدرة موسكو الاستراتيجية. غير مؤكدة. وفى التدريبات، وبينما ينظر پوتين ويشاهد، فشل إطلاق صاروخين من غواصات. فقبل ذلك كان الشيء الذى نخشاه هو التفوق السوڤييتى. أما الآن فإن التدهور الروسى الواضح بشكل مهين لا يبدو أقل خطورة.

فى الولايات المتحدة بدأت المناقشة السياسية فجأة وقد عادت إلى التركيز على الأمور الداخلية، من فقدان الوظائف إلى سياسة التجارة إلى مسألة حقوق الزواج للشواذ جنسيًا. وتحت حكم چورچ دبليو بوش، زاد الإنفاق على الدفاع بمقدار

خمسين بالمائة، وبينما عجز ميزانية بوش محل إدانة منتظمة من الديمقراطيين، فإن زيادة الإنفاق على الدفاع ـ الذى يعد أحد أسباب العجز الرئيسية ـ لم يكن محل مناقشة. لقد سقط الديمقراطيون فى روتين انتقادات سياسات بوش الحربية، ولكنهم لم يقدموا سوى القليل على طريق سياسات مختلفة خاصة بهم.

ومثلما قنع السناتور چون كيرى بالانتصارات الأولية التى كان لها أن تدعم ترشيحه فإنه وجد نفسه يتنافس مع فيلم ميل چيبسون «آلام السيد المسيح»، بوصفه مادة للحوار. ففى أسبوعه الأول شاهد الفيلم أكبر جمهور فى تاريخ السينما. فلماذا يحظى هذا الفيلم بكل هذا الصيت لدى الأمريكيين؟ فقد رأى كثير من المؤمنين هذا الفيلم بروح من الإخلاص، ولكن بدا أيضا أن هنا أوتاراً مخبأة قد تم مسها. فقد صار دور اليهود نقطة وميض، وبينما كان العراقيون يصرخون، بعد تفجير القنابل فى كربلاء «لا لا أمريكا، ولا إسرائيل» وجد الأمريكيون أنفسهم يواجهون من جديد أقدم سؤال عن معاداة السامية. أقدم سؤال، هو: كيف يمكن لمجتمع أن يعرف نفسه بشكل إيجابى، بتعريف «الآخر» سلبيًا؟

إن فيلم «آلام السيد المسيح» رسم صورة يسوع على أنه ضحية بشكل مؤكد. فهل تمت مواساة الأمريكيين بفيلم ربما لعب على بعض مشاعرهم غير المعلنة بأنهم ضحايا؟ هل كان العنف الزائد فى الفيلم مرتبطا بالاقتناع الكامن فى عصر الإرهاب بأن التطهر يأتى من خلال الإيذاء المتعمد؟ لقد كان من الصعب استبعاد الإحساس بالطفو الحر، كما تجلت مشاعر القلق غير المسماة وسط جمهرة عريضة من الناس على قصة ذات تأثيرات خاصة عن منتهى المعاناة والهلاك الذى حل بالمسيح ومنتهى الشر الذى مارسه الأشرار ذوو البشرة الداكنة. فى اليوم التالى لليوم الذى كسب فيه كيرى انتصاراته الكبرى فى يوم الثلاثاء، كشف چورچ دبليو بوش النقاب عن أولى حملات دعايته. فقد أظهرت كومة الأطلال الناجمة عن انهيار البرجين التوءمين، ورجال الإطفاء يحملون جثة ملفوفة بالعلم من خارج ركام الحجارة. ولم يكن لها عنوان، ولكن ربما كان يمكن أن نسميها «آلام الأمريكيين» أو حتى «آلام چورچ دبليو بوش».

* * *

ولكن ماكجوفرن كان على حق

٦ يناير ٢٠٠٤م

يرى الديمقراطيون عفريتا تحت السرير، واسمه چورچ دبليو بوش. إذ إن رعبًا من درجة متدنية قد بدأ ينطلق على حين يتنبأ العارفون بتكرار لسنة ١٩٧٢م: «مثلما تذهب ماساتشوستس تذهب كولومبيا أيضًا». إن مشهد «ماكجوفرن آخر» يثير شهية شركاء بوش، على حين يولد الخزى والكآبة بين الديمقراطيين. فقد هرب هوارد دين من الرابطة على حين قام مرشحون آخرون بتلطيخه بها.

وهنا تكمن المشكلة: ففى سنة ١٩٧٢م، كان چورچ ماكجوفرن على صواب. فإذا كان هناك خزى ارتبط بتلك الانتخابات، فهو خزى يلحق بأمريكا لأنها انتخبت الرجل الخطأ على هذا النحو الدرامى. وبعيدًا عن خيانة الأمانة فى نيكسون وإدارته (وهو نموذج من الكذب سرعان ما انكشف فى ووتر جيت) كان هناك موضوعان تاريخيان عالميان حددا الانتخابات، وفى كل منهما كان نيكسون على خطإ. كانت سنة ١٩٧٢ شوكة فى الطريق، ويوضح التاريخ أن الولايات المتحدة قد تحولت إلى متاهة أخلاقية ما يزال عليها أن تخرج منها.

ومن الواضح أن الموضوع الأول كان حرب ڤيتنام. وإذ تم انتخاب نيكسون سنة ١٩٦٨م بوعد «السلام المشرف»، فإنه لم يكن يسير على الطريق الذى يؤدى إلى السلام أو الشرف. فقد تمت ڤيتنمة القوات الأرضية (فقد تم سحب آخر وحدات الولايات المتحدة المحاربة بعد الانتخابات بأشهر قليلة) ولكن حربًا جوية وحشية كانت مشتعلة فى كل أرجاء ڤيتنام (وقد نشرها نيكسون فى كمبوديا أيضا مما جلب نتائج كارثية). وبعد مصائب ١٩٦٨م تقبل الأمريكيون بإرادتهم شعوذة نيكسون وخفة يده فى ڤيتنام. وتعاونت فى هذا وسائل الإعلام. وقد تذكر أحد منتجى تليفزيون NBC أن معدى نشرات الأخبار قرروا، بعد سنة ١٩٦٩م، أن تكون «القصة» هى مفاوضات السلام، وليس القتال.

وبحلول سنة ١٩٧٢م، لم يكن الأمريكيون يريدون أن يسمعوا عن ڤيتنام. وتظاهروا بأن نيكسون قد أنهى الحرب. وقال منتج NBC فى تلك السنة: «وقد أنهى

الحرب لأنك لا ترى الحرب على شاشة التليفزيون. ولذلك فإن الحرب قد انتهت، على الرغم من أننا نقصف هذا الشعب الفقير بجحيم من القنابل، أكثر من أى وقت مضى». وبعد خمسة أسابيع من الانتخابات كان على نيكسون أن يأمر بالقصف فى يوم الكريسماس على هانوى، والذى كان أقسى هجوم وحشى منذ الهجوم بالقنابل الذرية على اليابان. وبدلاً من السلام المشرِّف، كان لا بد أن تكون هناك هزيمة مع العار ـ بعد سنتين من المذبحة. لقد واجه چورج ماكجوڤرن الشعب الأمريكى بالحقيقة التى لا يريدها عما كانت حكومتهم تفعله. فهل هذا هو مصدر العار؟

ولكن كان هناك موضوع أكبر حتى من ذلك يفصل ما بين المرشحين الاثنين فى سنة ١٩٧٢م. فقد كان نيكسون هو التجسيد لغلطة أمريكا المأساوية فى الحرب الباردة. فقد كان مساره المهنى كله مبنيًا على معلومات مستمدة من التقدير البارانوى للخطر السوڤييتى. فقد قال پول نيتز عندما خدم فى إدارة نيكسون: «إنه عالم نحن/ هم. نحن ضد السوڤييت. إما أن ننال منهم أولاً، وإما أن ينالوا منا أولاً». هذه الطريقة التى تنذر بنهاية العالم فى فهم العدو كانت قد انقضى زمنها تمامًا فى السبعينيات، ولكن الأمر استغرق عقدين آخرين من الزمان لكى يفهم رجال الدولة فى أمريكا ذلك. إذ إن نيتز، وريتشارد پيرل، ودونالد رامسفيلد، وپول ولفوڤيتز وريتشارد تشينى ـ كل هؤلاء الحواريين المروجين لمبدإ «عالم نحن/ هم» قد اعتلوا مواقع السلطة سنة ١٩٧٢م، ولو لم يتم القضاء على رؤيتهم ثنائية القطبين (على يد ميخائيل جورباتشوف) لكانت الحرب الباردة ما تزال مستمرة. والواقع أن هؤلاء الرجال الذين جاءوا سنة ١٩٧٢م قد عادوا، بهدف خلق حرب باردة أخرى.

كان چورج ماكجوڤرن معارضًا لرؤية «نحن/ هم». كان نبيًا يدعو للانفراج فى العلاقات الدولية، وقد برأه التاريخ. فقد قدم لأمريكا طريقًا خارج المصيدة التى تعارض المفاهيم «الواقعية» و«المثالية». ولم يفهم ماكجوڤرن فقط أن حرب ڤيتنام كانت خطأ، ولكنه فهم أنه فى العصر النووى، يكون الواقعى شخصًا يرى أن بناءات الحرب نفسها ينبغى تقويضها بشكل نظامى. ويسمع المرء شكاوى الديمقراطيين اليوم من أن ماكجوڤرن، الذى كان طيارًا فى قاذفة قنابل فى الحرب العالمية الثانية وحصل على

أوسمة وميداليات، لم يستفد من سجلّه البطولى، ولكنهم أخفقوا تمامًا فى الوصول لأهم نقطة لديه ـ وهى أن الخوف من الحرب وتمجيد الحرب لا يجب أن يستغلا ببساطة لأغراض سياسية، سواء على المستوى الشخصى أو القومى. وما رفض المرشح ماكجوڤرن فعله هو ما ينبغى على الرؤساء الأمريكيين أن يرفضوا فعله.

إن چورچ دبليو بوش يستغل الحرب بشكل قذر لأغراضه الخاصة. وهو يرعى تقديرا بارانويا لما يهدد أمريكا الآن، ويحصل على ميزة سياسية من الخوف الناجم عن هذا، كما أن وسائل الإعلام الإخبارية تغذى هذا الخوف. ويستمر العارفون فى المعارضة الزائفة بين «الواقعى» و«المثالى» فى الرؤية، ويهمشون أى شخص يجرؤ على التساؤل عن أمريكا ـ الحامية العسكرية. وفى الوقت نفسه، تشتعل حرب بوش غير الضرورية، وحتى معدل الوفيات الثابت لشباب الجنود الأمريكيين لم يعد يشكل أخباراً جديدة. وإذا كان أحد الديمقراطيين يخوض انتخابات رئاسة الولايات المتحدة يجرؤ على قول الحقيقة بشأن هذه الأمور، فإن هذا ليس عاراً. وقبل الشعور بالكآبة إزاء نوڤمبر التالى، اسألوا ماذا يعنى إذا ما كان على الديمقراطى لكى يكسب أن يفعل ما فعله نيكسون.

***

حالة الاتحاد

٢٠ يناير ٢٠٠٤م

فى خطاب حالة الاتحاد الذى يلقيه الليلة، سوف يتحدث الرئيس بوش عن الكابوس الذى خلقه فى العراق كما لو كان حلمًا قد تحقق. بيد أن الحقائق المناقضة لمغامرة أمريكا الخرقاء بدأت تفصح عن نفسها. فعندما تكتب القصة المروعة عن حرب العراق، فإن الأسبوعين الذين انقضيا لتوهما يجب الاعتراف بأنهما الوقت الذى اتضحت فيه مخادعة وعدم أمانة سياسات بوش على نحو أبرز من أى وقت مضى. وهذه هى حوادث لن يشير الرئيس إليها الليلة، إلا أنها إذا أخذت سويا سوف تكشف عن الحالة الحقيقية لعدم اتحاده:

* في ٤ يناير، تمت إذاعة الشريط الذى يحمل صوتًا محاربًا يزعم أنه أسامة بن لادن على قناة الجزيرة التليفزيونية. وفى اليوم التالى أكدت الـ CIA أن هذا هو أسامة بن لادن وأن هذا شريط حديث، وأظهر الشريط أنه ما يزال حيًا.

* في ٨ يناير، قامت وقفية كارنيچى للسلام العالمى بتفنيد مزاعم بوش الأكبر بشأن العراق وخلصت إلى أن «موظفى الإدارة قاموا بشكل منتظم بإساءة تقديم الخطر الذى تمثله أسلحة الدمار الشامل العراقية وبرامج الصواريخ الباليستية».

* في ١١ يناير، وعلى التليفزيون، أكد وزير الخزانة السابق بول أونيل التقارير الواردة فى كتاب رون سسكنيد «The Price of Loyalty» من أن إدارة بوش خططت للحرب ضد العراق قبل الحادى عشر من سبتمبر «ومنذ البداية الأولى».

* في ١٢ يناير وصفت ورقة منشورة فى كلية الحرب Army War College الحرب ضد الإرهاب بأنها «تفتقر إلى التركيز الاستراتيچى». إن التقدير من داخل المؤسسة العسكرية نفسها قد فجر الجهود التى يقودها بوش لأنها «تعد بأكثر مما يمكنها تقديمه، وتهدد بأن تبدد موارد الولايات المتحدة العسكرية فى بحث بلا نهاية ولا أمل عن الأمن المطلق».

* في ١٣ يناير، ناقضت إدارة بوش نفسها بالإعلان عن أن كندا يمكنها أن تشارك فى عقود إعادة إعمار العراق. إن رفض واشنطن العقابى للبلاد التى كانت قد عارضت الحرب لم يفلح.

* في ١٤ يناير أصدرت منظمة هيومان رايتس ووتش (مراقبة حقوق الإنسان) تقديرًا أدان بعض تكتيكات الولايات المتحدة فى العراق بوصفها انتهاكا لمعاهدة چنيف، بما فى ذلك هدم المنازل التى لم «تحدث للوفاء بضرورات عسكرية». وقد اتهم التقرير الجيش بالقبض على المدنيين العراقيين واحتجازهم ببساطة لأنهم أقارب الهاربين.

* في ١٤ يناير وردت تقارير بأن صدام حسين المقبوض عليه كان معه خطاب كتب فيه تعليمات بألا يتعاونوا مع المقاتلين الأجانب، مما زاد من فضح أسطورة أن صدام حسين كان على تحالف نشط مع القاعدة.

* فى ١٤ يناير تم نشر دراسة سرية أجرتها قيادة جيش الولايات المتحدة فى بغداد. أدانت تكتيكات الجيش فى العراق بأنها خاطئة وبأنها تصادمية بلا ضرورة. وأكدت على - بعكس مزاعم إدارة بوش - «أن القبض على صدام سيكون له أثر بسيط، داخل الحدود العراقية.

* فى ١٥ يناير، فى استجابة للزعيم الشيعى آية الله السيستانى، خرج ثلاثون ألف عراقى إلى الشوارع احتجاجًا على خطط أمريكا لنقل الحكم إلى الشعب العراقى، مما جعل فانتازيا واشنطن، بأن العراق لن يلحق بإيران كدولة يحكمها الشيعة، أمرًا غير محتمل. فهل هذا سوف يضع العراق ضمن محور الشر مرة أخرى؟

* فى ١٥ يناير وردت تقارير عن أن إدارة بوش تفكر فى فتح عقود إعادة إعمار العراق أمام فرنسا وألمانيا وروسيا، كما حدث مع كندا. إن واشنطن تتعثر.

* وبحلول ١٩ يناير، أمس، كانت إدارة بوش قد ناقضت نفسها بأن تضغط فى الأمم المتحدة طلبًا للمساعدة العاجلة فى الانتقال إلى حكومة ذاتية عراقية، وهى أوضح إشارة حتى الآن على أن سياسة واشنطن المنفردة قد فشلت.

وفى اليوم السابق على حالة الاتحاد منذ سنة مضت، حطت الولايات المتحدة من شأن مفتش الأسلحة التابع للأمم المتحدة هانز بليكس، بحيث رفضت استراتيچية التفتيش والاحتواء التى كانت مفضلة فى الأمم المتحدة. وسخر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد مما أسماه «أوروبا العجوز». ووعد وزير الخارجية كولن پاول بأن يقدم دليلاً دافعًا على أن صدام حسين كان يمثل خطرًا حالاً. ونشرت وزارة الخارجية اتهامًا لصدام حسين بعنوان «جهاز للكذب».

وفى خطاب حالة الاتحاد نفسه، تباهى الرئيس بوش بأنه قد «حرر» أفغانستان - وهى بلاد تنتمى اليوم إلى لوردات الحرب القدامى، باستثناء منطقة صغيرة حول كابول. وتفاخر بأنه «واحدًا بعد الآخر يتعلم الإرهابيون معنى العدالة الأمريكية» وربما يكون تفكيره منصبًا على معسكر الاعتقال فى جوانتامو، حيث يتم السخرية من العدالة الأمريكية والاستهزاء بها. وفصل بوش قائمة طويلة من أسلحة الدمار الشامل لدى

صدام حسين. وقال إن العراق قد حصلت على «اليورانيوم من إفريقيا»، وأشار إلى بعض أنابيب معدنية لكى يفترض أن هناك برنامج تسليح نووى. وقال إن صدام حسين «يساعد ويحمى» القاعدة، ودخل إلى المستقبل لبربط بين مختطفى الطائرات فى ١١ ـ ٩ وصدام. ووعد بأن كولن پاول سوف يقدم الدليل على الرابطة بين صدام حسين والإرهابيين.

لقد أرسى الرئيس مقياسًا صارمًا العام الماضى، بحيث بنى جهازًا من الأكاذيب التى سيكون من الصعب أن يجاريها الليلة. وثم كذبة جريئة لن يقدر على مجرد تكرارها: «نحن نسعى إلى السلام، نحن نناضل من أجل السلام». هذا ما قاله بوش منذ سنة مضت.

* * *

الموت فى سبيل غلطة

٣ فبراير ٢٠٠٤م

منذ شهادة رئيس مفتشى الأسلحة ديڤيد كاى أمام لجنة من مجلس الشيوخ الأسبوع الماضى، تركز الاهتمام العام على المخابرات المخطئة التى أدت إلى الغزو الأمريكى للعراق. إن الديمقراطيين يقرعون الموضوع، وهو ما قد يكون لصالح الرئيس بوش فعلاً. إن أحداث سنة ماضية ليست هى السؤال الملح. إذ يجب على الديمقراطيين أن يطرحوا السؤال: ماذا بشأن العراق الآن؟

لا أحد يفتقد صدام حسين، ولكن الأسلوب غير المبرر لإزاحته قد حرك قطارًا من العواقب المرعبة. فالسياسيون، بمن فيهم زعماء الديمقراطيين المرشحين للرئاسة يحبون أن يتحدثوا عن «الأخطاء» الأمريكية الماضية بدلاً من السياسات الحاضرة أو القرارات المستقبلية لسبب بسيط هو أن حاضر العراق ومستقبله ينطوى على مأساة معينة تتحمل الولايات المتحدة مسئوليتها. هذا هو المناخ الفوضوى الذى خلقه عدوان بوش بحيث لا يوجد طريق للتقدم إلى الأمام. وما تزال الأشياء السيئة مستمرة فى الحدوث بالعراق، ولا يهم ما تفعله الآن واشنطن، مثل هذه الأنباء غير السعيدة يمكن

أن تغرق السياسى الذى يجرؤ على الاعتراف بها. من الأفضل أن نقدم الحكمة التقليدية القائلة بأنه مهما كانت أصول هذا الصراع مخطئة، فلا خيار الآن سوى «التمعن فيها» - حتى لو كان الغرض فقط هو «دعم القوات». ويقترح معارضو بوش ومنتقدوه أن قوات التحالف تحتاج إلى المزيد من الصفة الدولية، ولكن يبدو أن آخرين غيرهم يقبلون احتلالاً أمريكيا لأجل غير مسمى للعراق. نحن الذين كسرناه، وعلينا إصلاحه. من أجل «المصداقية» أو حتى «الشرف» يجب أن «نواصل المسار» - حتى لو كان الوجود الأمريكى بحد ذاته يسبب الفوضى.

وفى شهادة معارضة لشهادة ديفيد كاى منذ ثلاث وثلاثين سنة مضت طرح الشاب چون كيرى سؤالاً صعبًا شهيراً: «كيف تطلب من رجل أن يكون آخر من يموت فى سبيل غلطة؟». وبعد ما كشفه كيرى، فإنه حتى إدارة بوش تبدو مستعدة للاعتراف بأن التبريرات «الماضية» للحرب على العراق كانت «غلطة» (إذا كانت غلطة الـ CIA فقط) ولكن ما الذى يتطلبه الأمر من حكومة الولايات المتحدة لكى تعترف بأن المسار «الحالى» للسياسة خاطئ بنفس القدر؟ إذا كانت الحرب غلطة فى أصولها نفسها، فإنها غلطة فى استمرارها. وكما كان الشاب كيرى بالتأكيد مشمئزاً من تطبيق كلمة «غلطة» على صراع قتل وأصاب بالعجز بعضًا من أصدقائه، فيجب على أى زعيم أمريكى أن ينفر من الإدلاء بأى اعتراف لعائلات أكثر من خمسمائة جندى قتيل من جنود الولايات المتحدة. إلا أن ما ماتوا فى سبيله كان من الواضح أنه ليس السبب النبيل الذى حدده كولين پاول منذ سنة مضت، ولا «الحرية» التى يتحدث الرئيس بوش عنها بلا مبالاة. على أحد الزعماء الأمريكيين، فى توبة شاملة، أن يعترف بالحقيقة المروعة لهذه العائلات: «لقد مات أبناؤكم وبناتكم من أجل غلطة».

إن مثل هذا الإقرار بالحقيقة داخل الوطن هو فقط الذى سيجعل من الممكن ما يجب فعله فوراً فى العراق. إذا كان دخولنا فى الحرب غير الضرورية خطأ، فإن استمرارنا فيها خطأ. إن الوجود العسكرى للولايات المتحدة فى العراق، مهما كان القصد منه، قد صار هو الجبهة التى ينظم المقاتلون المعارضون أنفسهم ضدها. فالجنود الأمريكيون فى سيارات الهامڤى المصفحة، وقوافل الولايات المتحدة التى ترفع البنادق، ونقاط

المراقبة جيدة التحصين التى تقيمها قوات التحالف، والمعسكرات شديدة التحصين التى ترفع العلم الأمريكى ـ كل هذه تغذى الاستياء بين السكان الذين يزداد عددهم باستمرار، بمن فيهم أعداء صدام حسين. وهو يبرر العدد المتزايد للمجاهدين الذين صار استعدادهم للقتل من خلال الأعمال الانتحارية هو المشكلة الحقيقية لتزايد أعمال العنف. إن الاحتلال مصدرها ويجب أن ينتهى. ينبغى على القائد الأمريكى الحقيقى أن يعلن «فى اليوم الذى أتولى فيه منصب رئيس الولايات المتحدة، سوف آمر بالانسحاب الفورى لكل القوة الأمريكية المقاتلة من العراق».

وكذلك الحال مع المصالح الأمريكية التجارية فى العراق. فمن المؤكد أن الولايات المتحدة عليها التزام بالمساعدة على الإصلاح الكافى للبناءات الاجتماعية والمدنية التى تم تدميرها فى الحرب، ولكن ليس على طريقة هاليبورتون. إن مثل هذا الفساد المستفز يغذى الحرب أيضًا. ومن ثم، فإنه حتى بينما تمول خزانة الولايات المتحدة جهدًا عالميًا لإعادة الإعمار من خلال الأمم المتحدة، فإن الشركات الأمريكية ـ لا سيما شركات البترول ـ يجب منعها من أن تجنى أرباحًا من هذه «الغلطة». ليس لدى أى رئيس السلطة لأن يمنع المبادرات التجارية للعمل التعاونى فى الخارج، ولكن المنع القوى يمكن تفعيله من خلال التنظيم والترخيص. يجب على أى زعيم أمريكى حقيقى أن يعلن «عندما أكون أنا الرئيس سوف أفعل كل ما أستطيع لمحاربة حقيقة ومفهوم أننا قد استفدنا بأى طريقة من غزونا للعراق».

إن إنهاء الاحتلال ومنع الاستغلال هما، بطبيعة الحال، النتيجة الطبيعية للاعتراف الأكثر صعوبة التى يجب على أى رئيس جديد أن يقوم به ـ للعائلات الأمريكية التى ضربها الحزن، وللشعب العراقى، وإلى العالم. «لقد كان ما فعلناه فى العراق غلطة. فقد مات أناس أبرياء. وقد تمزق نسيج النظام الدولى. نحن نرى ذلك وقد تحركنا لإبطاله. ولكننا لا نستطيع أن نبطل المعاناة غير الضرورية التى سببناها. ولهذا نحن آسفون».

***

آلام المسيح الحقيقية

١٠ فبراير ٢٠٠٤م

هل يمكن لمسيحى متدين أن يبالغ أكثر من اللازم فى آلام المسيح؟ هل يمكن تذكر معاناة يسوع بوصفها مسألة دموية بشكل لايطاق؟ أو أنها فريدة فى بابها، بالنسبة لهذه المسألة؟ هل يمكن جعل الصلب على هذه الدرجة البالغة من المركزية فى العقيدة المسيحية؟ فى الحقيقة هل يمكن لهذه العقيدة أن يتم تشويشها بالتأكيد المغالى على الدم والقسوة، فى انتهاك للرسالة التى بشَّر بها المسيح - أو حتى فى مجرى قسوة جديدة؟

هناك أسئلة تدور بذهنى وأنا جالس خارج الكنيسة الصغيرة فى بيت المقدس فى نفس المكان الذى مات فيه يسوع. إذ إن قصص الأخبار المثيرة وحملة دعاية ماهرة قادتنى إلى الربط بين جولجوثا [وهى مكان صلب المسيح بالعبرية، أو جمجمة بالعربية] وفيلم ميل چيبسون «آلام المسيح». إننى مدرك لخطر الحكم المسبق، لأننى لم أر الفيلم، بيد أن تعليقات چيبسون العديدة واللقطات المختارة للخبراء التى رأيتها، تكفينى للتفكير فيه هنا وإمكانية أن الفيلم يسوى تهمة «قاتل المسيح» القديمة ضد اليهود هى التى أثارت اهتمامى الأول.

ولكن جلسة تأمل بعد الظهر فى المكان الذى كان المسيحيون يتذكرون فيه موت يسوع على مدى ستة عشر قرنًا من الزمان، تثير السؤال حول ما إذا كنا قد أسأنا استخدام هذه الذكرى على نطاق واسع. فإن هذا النصب الذى يخلد الجولجوثا، هو فى الحقيقة، نوع من الكنائس الجانبية فى كنيسة أكبر تعطى تأكيداً مهيمنًا على ذكرى المسيح وهو يقوم من بين الموتى. ويرى المرء هذا فى ضوء حقيقة أن الكنيسة تسمى الضريح المقدس من جانب المسيحيين اللاتين، بما يشير إلى المقبرة وليس المكان الذى تم فيه الإعدام، بل وأكثر من هذا فى حقيقة أن المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين يسمونها كنيسة القيامة. وثمة فرح بالقيامة يغطى على أحزان الصلب بكل طريقة هنا.

وفى القرون الأولى من عمر الكنيسة، كان لحادثة الصلب الدموية أثر قليل فى خيال المسيحيين الدينى. ويجد المرء على سبيل المثال رسومات على حوائط سراديب الموتى القديمة، لكأس العشاء الربانى، ورغيف الخبز، والسمك - ولكن نادراً ما يجد صورة

الصليب. وقد بجل المسيحيون الأوائل موت يسوع، بطبيعة الحال، ولكنهم كانوا يستدعونه بطريقة مجازية، لا حرفية وهو يذهب فى مياه التعميد أكثر من صورته مصلوبًا بالمسامير والدماء تسيل منه. ويأتى الصليب فى مركز الرمزية المسيحية فقط فى القرن الرابع، مع قسطنطين وأمه هيلينا، التى ترد ذكراها على اعتبار أنها اكتشفته هنا، على بعد ياردات فقط من مكان جلوسى. ولكن حتى فى تلك اللحظة، كان الصليب يؤخذ على أنه رمز للقيامة أكثر منه رمزًا للموت الوحشى.

ولم يحدث إلا فى فترة العصور الوسطى أن بدأت الكنيسة اللاتينية تضع الموت العنيف الذى لقيه يسوع فى مركز العقيدة، ولكن ذلك اللاهوت كان مرتبطًا باستحواذ ثقافى أوسع مع الموت، المتصل بالوباء وبالنزعة الألفية، ومذابح الحملات الصليبية. وجاء التمثيل الحرفى الزخرفى لحادثة الصلب فى الفن فقط باعتباره تعذيبا للذات وغيره من «الأعمال المميتة» التى دخلت فى الإيمان. وبدأ يوم الجمعة الحزينة يحل محل عيد الفصح باعتباره ذروة السنة الطقوسية. وتم فهم الرب على أنه قاس بما يكفى لترحيبه بالموت التعذيبى لابنه باعتبار هذا هو الطريق الوحيد لفداء خطايا البشرية الساقطة.

هذا هو نوع التدين الذى ولد فى رحابه الكثير من المسيحيين، بمن فيهم الكاثوليك من أبناء جيلى. ومن كل التقارير، يكون هذا هو التدين الذى عرضه فيلم ميل چيبسون. ولكن إصلاحات مجلس الڤاتيكان الثانى لم تكن أكثر أهمية فى شىء منها فى رفض هذا التدين وإعادة القيامة (قيامة المسيح من بين الموتى) إلى مركز العقيدة. وهذا هو السبب، فى أنه بالكنيسة الكاثوليكية، حلت الملابس البيضاء محل الملابس السوداء فى الخدمات الجنائزية. وهذا هو السبب فى أن طقوس عيد الفصح قد تأكدت من جديد، وهذا هو السبب فى أن الصليب نفسه، فى البناء المعمارى للكنيسة، قد تم خفضه. ويعنى كل هذا أن الموت لم يكن غرض حياة يسوع، ولكنه كان جزءًا واحدًا فقط من قصة تمتد من التجسد فى بيت لحم، إلى الحياة كيهودى فى الناصرة، إلى الدعوة فى الجليل، إلى التحدى الشجاع للحكم الإمبراطورى الرومانى فى بيت المقدس، إلى الإيمان الثابت برب إسرائيل الذى تحقق وعده فى القيامة. فى هذ السياق الكامل يمكن أن نرى موت يسوع على أنه إشارة كاملة على إنسانيته ـ وأكثر من ذلك.

فبكونه قد صُلب، لم يكن المسيح قد تفرد بأقسى صنوف المعاناة التى وقعت ولكنه لحق به آلاف من اليهود الذين قالوا لا لروما ـ والذين عانوا بالمثل بسبب هذا.

وإذا ما نحينا جانبًا مسألة الذوق، أو حتى التلهف فى عروض العنف السينمائى، فإن أى تمثيل لموت المسيح يضفى معنى مقدسًا على المعاناة أو القسوة، وينسبهما إلى «إرادة الرب» ناهيك عن الذنب الخاص لليهود، هو خيانة لآلام المسيح الحقيقية ـ والتى كانت من أجل الحقيقة، ومن أجل الرب، ومن أجل الحياة. كما وضعها هو، كاملة.

***

حائط عبر العالم

١٧ فبراير ٢٠٠٤م

إن السور، تحديداً يبدو مختلفًا على كلا جانبيه. فهنا فى إسرائيل تبنى حكومة شارون ما تسميه «السور المانع للإرهاب»، وهو حاجز لا يمكن عبوره سوف يمتد مئات الأميال على امتداد طريق دائرى يقسم ما بين المناطق الفلسطينية والمناطق الإسرائيلية. وفى الأماكن المسكونة، يكون عبارة عن حائط عال من الأسمنت. ومن جانب إسرائيل يظهر البناء الرمادى الكئيب فى معظم الأحيان على أنه خط جبهة تبدو من بعيد فى الأفق، وعلى أنه تذكرة غير سارة بخصائص الحامية العسكرية للدولة المحاصرة، ولكنه يُرى أيضًا على أنه علاج لعدم تحديد الحدود الإسرائيلية وعلى أنه عمل ضرورى ضد القتل الانتحارى. والمشكلة التى يهدف السور إلى حلها مشكلة حقيقية، ولكنها تسبب مشكلات جديدة. إذ إن المحكمة العليا فى إسرائيل سوف تستمع إلى مجادلات ضد السور، وهناك جدل عنيف حوله فى الصحافة الإسرائيلية. والحكومة تنظر الآن فى تعديل مساره. ولكن حتى كثير من الإسرائيليين الذين يأسفون لشلل عملية السلام يمكنهم أن يروا فى السور علامة على الأمن.

أما من الجانب الفلسطينى، فإن البناء حائط خالص وبسيط، وتم تسجيل الاعتراضات فى محكمة العدل الدولية. وهو يبدو عن قرب حاجزًا فى نظر القرويين الذين يقتحم أراضيهم، فهو وحشية كئيبة تعتدى عليهم بطرق عديدة. أولها، أنه أثر

جار على التدمير، بينما البلدوزرات تنتهك الممتلكات، ومزارع الزيتون، والمزارع، والآبار والملاعب. ويعترض الحائط الطرق ويخترق البلدات والمدن. ويتم فصل أبناء العائلات، ومنع العمال من الذهاب لأعمالهم، والنساء الحوامل وغيرهن من المرضى يجدون أنفسهم معزولين عن الأطباء والمستشفيات. وبسبب وجود السور والحائط على امتداد ممر ثعبانى صمم على حماية أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين، فإنه يعزل عشرات القرى العربية ويخلق كثيراً من الملاجئ الفلسطينية، هى أقفاص حقيقية. وأشد ما يزعج أن العقبة تبتعد بعيداً عن حدود الخط الأخضر لحدود سنة ١٩٦٧م فى كثيراً من الأماكن، وبذلك يمثل حلاً إسرائيليّاً أحاديّا للأرض المتنازع عليها(*)، مما يقضى على الأمل فى حل تفاوضنى للصراع على الأرض. إن الحاجز يمكن أن يقتل عملية السلام مرة وإلى الأبد.

إن مليون ونصف مليون فلسطينى يعيشون فى الضفة الغربية يتحملون بالفعل مستويات غير مسبوقة من الفقر والانهيار الاجتماعى مع بطالة متفشية بين البالغين وسوء تغذية صادم بين الأطفال. وينذر الحائط بأن يزيد من سوء هذا كله ـ وربما على نحو دائم. لقد تمت خيانة الشعب الفلسطينى بطريقة هزلية مضحكة من جانب القيادة الفاسدة(**). وفى غمرة اليأس تسامح الفلسطينيون إزاء العنف العدمى الذى تمارسه أكثر عناصرهم تشدداً. ولكن الشعب الفلسطينى لم يخلق الكارثة التى يعيش فى رحابها، وما السور إلا رمز آخر على قلة الحيلة التى يعانيها. إنهم لا يمكن أن يروا فيه سوى مصدر جديد للغضب واليأس، الذى هو السبب الجذرى للإرهاب نفسه الذى يهدف «السور الأمنى» إلى حماية إسرائيل منه.

هناك نوع معين من النرجسية الأمريكية التى ترى كل مشكلة عالمية بحسبانها قد نشأت فى واشنطن، ولكن الزائر هنا يرى الروابط. فقد شاد چورچ دبليو بوش حائطًا عبر العالم، بادئًا ثنائية قطبية «نحن ضد هم» تطبق على هذا المكان وغيره من الأماكن.

(*) للأسف الشديد، أصبح الإعلام الأمريكى يتحدث عن الأراضى المحتلة بوصفها «أراضى متنازعًا عليها» (المترجم).

(**) القيادة الفلسطينية تستحق اللوم فعلاً، ولكن بسبب انخداعها فى مفاوضات أوسلو، واللوم الحقيقى يقع على جانب من يرفعون شعارات حقوق الإنسان ثم يعملون ضدها فى فلسطين والعراق، والشرق الأوسط، بصفة عامة ـ (المترجم).

ويرعى بوش الوهم القائل بأن المصادر العميقة للإرهاب يمكن تجاهلها لحساب «صدام» حضارى يغذى هذه المصادر على نحو فعال. ويتجلى فشل هذا التناول على أوضح صورة فى العراق، الذى يصبح بسرعة نقطة التجمع لنزعة حربية جهادية جديدة تمامًا عندما يقبل المتطرفون الإسلاميون التحدى الذى يطرحه بوش.

أما بالنسبة للأزمة هنا فى إسرائيل، فإن هناك مغزى عميقا فى حقيقة أنها لم تستحق حتى مجرد الذكر فى خطاب حالة الاتحاد الذى ألقاه الرئيس أخيرًا. فلم تفعل واشنطن شيئًا حقيقيّا لدعم ظهور قيادة فلسطينية معتدلة، كما أن المسلمين الفلسطينيين ككل يستوعبون مدّا متصاعدًا من الكراهية للإسلام فى الغرب، ومن المفهوم أنهم يميلون إلى رؤية أمريكا هى العدو. وفى الوقت نفسه، فإن حكومة شارون، ترى نفسها تشن المعركة على خط الجبهة فى الحرب على الإرهاب، ولكن استراتيچيات هذه الحرب قد تم رسمها فى واشنطن. لقد أدى مثال بوش إلى تدعيم الدوافع التى تؤدى إلى هزيمة الذات فى الحكومة الإسرائيلية.

بيد أن هناك فرقًا كبيرًا بين إسرائيل وأمريكا. فالإسرائيليون، بخلاف الأمريكيين، يواجهون خطرًا مميتًا على أسس يومية، فى الأوتوبيسات والمقاهى بحسبانها مناسبات أو فرصًا للتهديد، والأطفال بحسبانهم أهدافا. ليس من حق أى أمريكى أن يحكم على الاستجابات الإسرائيلية بشكل عفوى. ولكن لا يجب على الأمريكيين أن يتجاهلوا كيف أن تخلى واشنطن عن دورها يجعل الأمور تسوء على كلا الجانبين هنا. فقد ابتعد بوش عن هذا الصراع، ليخون بذلك التزامًا أمريكيا طويل المدى بأن يساعد على تقدم السلام من خلال المفاوضات. فهو يترك كلا من الفلسطينيين والإسرائيليين فى غمرة يأسهم المتزايد، وهى لا مبالاة تخون مثال العدالة فى أمريكا وصداقتها المؤسسة مع إسرائيل. إن الحائط يرتفع فى المدن والقرى الفلسطينية لأن الإسرائيليين والفلسطينيين لا يستطيعون حل الصراع وحدهم. ولكن الإسرائيليين والفلسطينيين للأسف، سويا على الجانب الخطإ من السور الذى بناه چورچ دبليو بوش.

* * *

تصوير فاحش لآلام المسيح

٢٤ فبراير ٢٠٠٤م

إن فيلم آلام المسيح لميل چيبسون، فيلم فاحش. فإنه سوف يجلب الاحتقار على اليهود. إنه إهانة تجديفية لذكرى يسوع المسيح. إنه أيقونة للعنف الدينى.

ومثل كثيرين غيرى، توقعت فيلم چيبسون بنوع من الاستعداد القتالى، لاسيما أن تمثيلاً غير نقدى لنصوص الإنجيل الإشكالية التى تلوم «اليهود» ظلما بسبب موت المسيح تهدد بإعادة بعث أسطورة «قتلة المسيح» القديمة. ولكن مشاهدة فيلم چيبسون تقنعنى بأنه يفعل ما هو أسوأ كثيراً من هذا. إذ إن تمثيله الحرفى الشديد لحكايات الآلام، وتقديمه المرئى لمادة هى فى التراث، كان القصد منها أن تُقرأ وتُسمع، مع اختياره المنحاز للتفاصيل واختراعه للحوار والحوادث تسبب مشكلة خطيرة، على حساب اليهود، ولكن تأثير خياله على قصة مقدسة، فى وقت يشحن فيه العالم من جديد بالعنف البدائى باسم الرب، يهدد بمشكلة أشد خطورة. إن موضوع هذا الفيلم، على الرغم من عنوانه، ليس هو آلام المسيح، ولكنه الحب المريض للإساءة الجسدية، الذى تم ارتكابه من أجل السلطة والقوة.

فاليهود حسبما يقدمهم هذا الفيلم سلبيون بدرجة كبيرة. والجنود الرومان يعدمون يسوع فى وحشية، ولكن پونطيوس پيلاطيس رجل صالح يقف فى تناقض درامى مع قيافا الكاهن اليهودى الأعلى. وإذ يتخطى چيبسون كل شىء فى الأناجيل، فإن فيلمه يؤكد الفضيلة الرومانية وفساد اليهود باختراعات مثل هذه:

* زوجة بيلاطيس، كلوديا، هى بطلة حقيقية تقف مع مريم. ومريم التى تخاف على طفلها تتوسل إلى الرومان ضد الجموع اليهودية المعادية.

* كلوديا هى المرأة وراء الرومان. ونظيرتها الدرامية، المرأة وراء اليهود، ليست سوى شيطانة.

* يقدم پيلاطيس برقة كأسًا من الماء ليسوع. ويأمر پيلاطيس بضرب يسوع بالسياط، ولكن فقط لكى يرضى تعطش اليهود للدماء.

* اليهود متهمون بشكل معبر من جانب اللص الصالح، الذى يقول وراء يسوع المصلوب «يا أبتاه سامحهم. . . » يخبر قيافا «أنه يصل من أجلك» واليهود متهمون من جانب يسوع الذى يواسى پيلاطيس بقوله «إنه هو الذى سلمنى لك أنت صاحب الخطيئة الأكبر».

والجزء المركزى فى الفيلم هو تتابع طويل تم بناؤه حول جلد المسيح بالسياط. إنه أشد الأفلام التى شهدتها فى حياتى قسوة. وبمجرد أن يفكر المشاهد فى تناثر جلد المسيح على أنه أقسى ما يمكن، فإن هذا يكون واقع الحال. الدم، اللحم، العظام، الأسنان، العينان، الحواجب، الأطراف - فالرجل يُسلخ حيا، ويؤخذ جلده جانبا. وفى هذه اللحظات التى لا تنتهى، مع تصاعد التعذيب فى الأدوات وفى العنف والشدة على السواء. يضع الفيلم خيال چيبسون المتدهور فى فيلم Brave Heart بصورة واضحة تمامًا. فعلى الشاشة وعلى المسرح، ليس هناك ما تفعله سوى أن تنظر بعيداً. وبعد أن اكتفى مشاهدو الفيلم بزمن طويل، حتى الرومان يتوقفون. وهنا يكون الاستخدام المعادى للسامية الذى يوضع فيه هذا المشهد المضحك: ثم يعود يسوع إلى الزحام «زحام اليهود»، ثم يطلب «اليهود» صلب المسيح وكأنهم لا يبالون بما أثار مشاهد الفيلم لتوه من أذى جسدى. حتى أقسى مذبحة ظهرت فى السينما لا تكفى لهؤلاء الوحوش. هذا المشهد، مع جمهور اليهود الذين يتغلبون على پيلاطيس الرقيق، هو المميت أكثر فى الكتاب المقدس، ولكن فى فيلم چيبسون، تم تصوير اليهود بصورة أكثر شراً عن ذى قبل.

وليست هناك قيامة للمسيح فى الفيلم. فثمة حجر يتدحرج، وتظهر صورة يسوع لثانية أو اثنتين من الجانب، وهذا كل ما فى الأمر. ولكن هناك سببا لذلك. ففى لاهوت چيبسون، عُدَّت قيامة المسيح غير ضرورية بسبب قدرة المسيح اللامتناهية على الصمود أمام الألم. ليس المسيح القائم من بين الموتى ولكن المسيح الذى نجا من الموت. وخيالات چيبسون العنيفة وهى غير أصلية، هى فى أصلها فانتازيا القوة الذكورية اللامتناهية. وإلحاق المعاناة هو فعل الفيلم، والسؤال الدرامى هو، كم قدر الألم الذى يمكن ليسوع أن يتحمله؟ إن القدرة المذهلة على المعاناة هى التى تحول الجنود الواقفين، وهى التى تنقذ العالم.

وفى فعل من التحرير الكتابى الضال، جعل چيبسون يسوع يقول: «إننى أجعل كل الأشياء جديدة» عندما يقترب تعذيبه من الذروة، كما لو أن التشويه القاسى يجلب التجديد. وعندما يصيح يسوع بصوت عال قرب النهاية: «يا إلهى، لماذا تركتنى؟» فإن الفيلم لا ينقل يأسه ولكن امتنانه ورضاه. وهناك قلب الفيلم للحقائق بغفلة، الصلب باعتباره انتصاراً للاستغلال السادى الماسوشى. ويبدو هذا الانتصار فى صورة ما يحييه يسوع چيبسون حين يقول أخيرا «لقد تم إنجاز الأمر».

إنه كذب. إنه مريض. ويحق لليهود تمامًا أن يشعروا بالإساءة من جراء فيلم آلام المسيح. بل إن المسيحيين، إذا أمكن، أن يشعروا بالإساءة أكثر.

بعد سنة

١٦ مارس ٢٠٠٤م

«يجب أن نضع فى حسباننا أنه لا يوجد شىء أصعب فى التنفيذ، ولا شىء مشكوكًا فى نجاحه أكثر، ولا أشد خطورة فى التعامل معه، أكثر من أن تبادر ببداية نظام جديد للأمور». هذا التحذير من نيكولو ماكياڤيلى، بيد أنه لم يكن له مثل هذا الصدى الحاد من قبل. فمنذ أكثر من عشر سنوات مضت، بعد غزو صدام حسين للكويت، سعى چورچ بوش الأب علنًا إلى المبادرة، حسبما قال للكونجرس «ببدء نظام عالمى جديد». وكما لاحظنا قبل ذلك، فإنه أعلن هذا الإعلان المدوى فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٩٩٠م. وبعد إحدى عشرة سنة، حرك تاريخ ١١ ـ ٩ الذى تحول فجأة إلى تاريخ به مسحة صوفية، ابنه لكى ينهى ما بدأه الأب. ومنذ سنة مضت هذا الأسبوع، شن بوش الابن حربًا ضد الرجل الذى حاول أن يقتل والده، حيث بادر بمعارضة النظام.

ولا يكاد الموقف يحتاج إلى التكرار. ففى العراق مات آلاف كثيرة، ومنهم ٥٦٤ أمريكيا، وتطل الحرب الأهلية مهددة. وفى الوقت نفسه، فإن أفغانستان فى قبضة لوردات الحرب الذين يديرون تجارة المخدرات. وقد زادت قوة المجاهدين الإسلاميين. والتكسب النووى لپاكستان قد انكشف ولكنه لم يتوقف بالضرورة. وخداع القاعدة ومرواغتها قد عزز من حقدها الأسطورى. وحلف الأطلنطى قد ناله الدمار. ولم تكن الولايات المتحدة أبدًا معزولة بهذا الشكل. إذ إن نموذجًا من الخداع قد دمر مصداقيتها

فى الخارج وفى الوطن. وانتشرت الفوضى من واشنطن إلى إسرائيل إلى هاييتى إلى إسپانيا. وسواء كان الاهتمام بإخضاع مقاتلى المقاومة فى المناطق البعيدة أو جعل الأمريكيين يشعرون بمزيد من الأمان، فإن هيمنة البنتاجون العسكرية غير المسبوقة، والتى تهز تكاليفها اقتصاد الولايات المتحدة، تبدو غير فعالة بشكل أساسى.

وفى أمريكا، يتحدد النظام الجديد للأشياء أساسًا بالطعم المرير للتخلف الأخلاقى، وكيف تحولت الكثافة العاطفية لكارثة الحادى عشر من سبتمبر إلى شعور بالوقوع فى مصيدة من صنعنا. وكما توضح مجزرة مدريد، فإن التهديدات فى العالم حقيقية وخطيرة، ولكن مبادرة بعد أخرى من الولايات المتحدة زادت من تصعيد مثل هذه التهديدات بدلاً من إنهائها. فبدلاً من إحلال نظام جديد محل الفوضى، تحدث استجابات دولتنا جراحًا جديدة تزيد من الفوضى. نحن نضرب ضد أولئك الذين نرى أنهم يهدفون إلى إلحاق الأذى بنا، ولكن دونما أن ندافع فعلاً عن أنفسنا. وما يسبب الاضطراب أكثر من غيره، وفى محاولتنا لوقف تهديد الأشرار لنا، هو أننا بدأنا نقلدهم.

إن أهم ما كشفت عنه حرب العراق كان فى احتقار إدارة بوش للحقيقة. وسواء تم تعريفها بأنها «كذب» أم لا، فإن تلفيق المخابرات قبل الغزو الذى حدث العام الماضى قد انكشف. فقد تم تحويل عبارة «أسلحة الدمار الشامل». فبينما كانت ذات مرة توحى بالخطر الجسيم لتكرار مأساة الحادى عشر من سپتمبر، فإنها توحى الآن بمخاوف أمريكية محسوبة بشكل واضح. لقد قدمت الحكومة دليلاً واضحًا يحدد الخطر وطلبت شن حرب وقائية، وطلبت وسائل الإعلام لهذا الدليل دونما تردد. وكانت النتيجة، طالما أنه لم تكن هناك أسلحة دمار شامل، على نحو ما كان لدى الحكومة والصحافة الأسباب الكافية لأن يعرفوا، هى خداع مؤسسى، ما يزال مستمرًا حتى اليوم. وفى الأمم المتحدة، ضللت أمريكا العالم. وفى خطبة بعد أخرى، ضلل الرئيس بوش الكونجرس والأمة. ولاحظ أن كلمة ضلل تعنى التزييف والفشل فى القيادة معًا. وأن يضلل معناها أن يضلل، حسبما قد يقول چورچ بوش المغرم بالحشو والتكرار.

وتكرار التزييف المرتبط بالحرب على الإرهاب والحرب ضد العراق قد جعلت القدرة الأمريكية تتآكل، إذا لم تكن تكشف عن الفرق بين ما هو حقيقى وما هو

كذب، ثم نفكر فى أن الفارق يهم كثيراً. فقد شوهت الإدارة الحقائق قبل الغزو، عندما لم يكن الشعب الأمريكى قادراً على أن يدحض ما لم يحدث بعد. وتشوش الإدارة الحقيقة الآن، عندما لا يتذكر الشعب الأمريكى بوضوح ما تم إخباره به منذ سنة مضت. وكون أن الرئيس بوش يحتفظ بثقة نسبة معقولة من الناخبين يوحى بأن الأمريكيين لم يعودوا يأبهون للحقيقة بوصفها المبدأ المرشد للحكومة.

وفى ذلك تكمن السخرية. فقد بدأت أسرة بوش فى الحقيقة نظامًا جديداً للأشياء. وقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى النقيض لذاتها، أمة الحرية المنتصرة التى تزعم لنفسها الحق هى كبت حرية الآخرين، أمة ذات توازن مبنى للقوة تدمر توازن القوى خارج حدودها، أمة ذات مشروع خلاق تصدر التفاهة الخانقة، وفوق هذا كله أمة ذات تعبير مباشر قوى ولا تحترم الحقيقة. ومهما يحدث منذ هذا الأسبوع فصاعداً بالعراق، فإن الحصاد الرئيسى للحرب، بالنسبة للولايات المتحدة، واضح. لقد هزمنا أنفسنا.

* * *

وجهة نظر

وهذا هو رئيس دائرة الاستخبارات؟

بقلم فريد زكريا

ويليام بويكن هو الجنرال الذى تم تعيينه أخيراً فى منصب رفيع المستوى بوزارة الدفاع. وخلال السنتين الماضيتين، كان الجنرال قد ألقى العديد من الخطب أمام جماعات مسيحية إنجيلية قال فيها، واصفًا المعركة التى خاضها مع أمير حرب صومالى (مسلم): «كنت أدرك أن إلهى أكبر من إلهه. كنت أدرك أن إلهى هو إله حقيقى، وأن إلهه ليس سوى صنم». كما أن الجنرال أوضح لمستمعيه مراراً أن عدو أمريكا هو «عدو روحى.. هو الشيطان». وأضاف أن الطريقة الوحيدة لهزيمة هذا العدو تتمثل فى أن «نهبّ ضدهم باسم المسيح».

إن تصريحات إضافية مقتضبة من هذا النوع ستكون كافية للتوفير على أسامة بن لادن عناء إصدار شرائط الفيديو. وما على بن لادن سوى أن يجمع معًا أكثر التصريحات شعبية من تلك التى صدرت عن بويكن وفرانكلين جراهام وبات روبرتسون وجيرى فالويل ليوصل وجهة نظره، بأن الأمريكيين ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.

بويكن أبلغ مستمعيه مراراً أن الرب هو الذى أوصل جورج دبليو بوش إلى البيت الأبيض. فقد كان يقول: «لماذا هذا الرجل موجود الآن فى البيت الأبيض؟ غالبية الأمريكيين لم تصوت له. أقول لكم هذا الصباح إنه موجود فى البيت الأبيض؛ لأن الرب وضعه هناك». ويشرح بويكن الآن أنه يعتقد أن الرب، وبصورة روتينية، يقرر نتائج الانتخابات الأمريكية، وأنه فعل الشىء نفسه لـ «بيل كلينتون وغيره من الرؤساء».

وحين سُئل عن هذه التصريحات، رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد شجبها، قائلاً: «إننا شعب حر».

راسلو الكاتب على WWW.fareedzakaria.com

نيوزيك ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م

المحتويات

رقم الإيداع ٣٢٤٨/ ٢٠٠٥

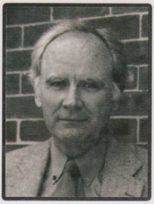
الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1208-5

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com



هذا الكتاب وهذا المؤلف

هذا هو الجزء الثانى والأخير من كتاب الحرب الصليبية لمؤلفه چيمس كارول الصحافى والكاتب و المحاضر النشط، صوت متميز من أصوات المفكرين الأمريكيين الذين يدينون غزو أفغانستان ، ثم غزو العراق .

وهو يرى ما تشنه الإدارة الأمريكية حربًا صليبية حقيقية، وليست زلة لسان من الرئيس الأمريكى ، ويراها عملاً إرهابيًا، إرهابيًا خالصًا.

يحب چيمس كارول بلده أمريكا، ويريد لها دورًا إنسانيًا مختلفًا فى قيادة العالم ، لمصلحة أمريكا ولمصلحة العالم.

وللكاتب عدة كتب أخرى ، منها «القداس الأمريكى وسيف قسطنطين» الحائز على جائزة الكتاب القومى ، والأكثر مبيعًا، وهو يحاضر عن الحرب والسلام ، و... اليهود والمسيحيين والمسلمين .

وهذا الكتاب هو واحد من سلسلة كت... الإمبراطورية الأمريكية» باكورته : «الهيمنة ... تشومسكى ، «أحزان الإمبراطورية» - شا... «كيفية النجاح فى العولمة» - إل فيسجون.

عادل المعلم

6223002801503